

أصدرته منظمة اليونسكو عام 1996

عدد 93 - الأربعاء 3 أيّار (مايو) 2006

سلوى بكر

مقام عطيّة

رسوم أسيا مسابكي





الشريك الثقافي



المؤسسة الراعية

الذكرى العاشرة لإنطلاقة
«كتاب في جريدة»

في إطار إحتفالات الذكرى الستين لتأسيس منظمة اليونسكو تم إحياء الذكرى العاشرة لإنطلاقة «كتاب في جريدة» بحضور السيد كويشيرو ماتسورا المدير العام لليونسكو والشيخ محمد بن عيسى الجابر المبعوث الخاص لمدير عام اليونسكو للتربية والتسامح والديمقراطية والسلام راعي «كتاب في جريدة» وعدد من وزراء الثقافة العرب.

وفي ما يلي كلمة المدير العام بهذه المناسبة:



اليونسكو 14/12/2005 باريس

معالي الشيخ محمد بن عيسى الجابر يقلد سعادة السيد كويشيرو ماتسورا جائزة «كتاب في جريدة» التقديرية وتمثل منحوتة برونزية تحمل عنوان «القارئ» للفنان العراقي منقذ سعيد

السيد رئيس مؤسسة MBI Foundation، السيد محمد بن عيسى الجابر
السادة الوزراء
السيد رئيس المجموعة العربية في اليونسكو
السيد رئيس اللجنة الاستشارية لخطة تنمية الثقافة العربية ARABIA
ممثلو اللجان الاستشارية والصحف المتعاونة
السيدات والسادة

إنه لشرف كبير لي وسعادة حقيقية أن أفتتح هذا الحفل في المقر الرئيسي لليونسكو بمناسبة مرور عشر سنوات على مشروع «كتاب في جريدة»، إسمحوا لي أولاً أن أوجه الشكر إلى الشيخ الجابر الذي بادر لتنظيم هذه الذكرى المهمة.
قبل عشر سنوات شهدنا ولادة مشروع جديد يتيح للعامة بالوصول إلى أهم الأعمال للأدباء العرب، «كتاب في جريدة». ويهدف هذا المشروع الذي يأتي في إطار جهود اليونسكو للترويج للحوار بين الحضارات وفي إطار الترويج للأدب العربي إلى توزيع ونشر المعرفة على أوسع شريحة من الناس في المنطقة العربية، مقدمة لهم شهرياً في الصحف دون أي تكلفة مالية وكل واحدة مخصصة لأحد الكتاب العرب.
لقد أطلق هذا المشروع بفضل الجهود المشتركة بعدد من الصحف العربية التي أخذت على عاتقها أن تنشر كل شهر كتاب في كل إصداراتها المحلية، ومن العوامل الأخرى التي ساعدت على نجاح المشروع هو الدعم الذي قدمته بعض الدول العربية والمؤسسات. وأنا أشكر كافة المؤسسات والدول ولا سيما الحكومة اللبنانية ومؤسسات العويس وصخر والحريري التي شاركت في مشروع «كتاب في جريدة» بشكل أو بآخر خلال السنوات الست الأولى بعد إطلاقه.
في نهاية عام 2002 وافقت مؤسسة MBI Foundation التابعة للشيخ جابر والتي تعد من الشركاء المهمين لليونسكو على تقديم دعمها الكامل لمشروع «كتاب في جريدة» الذي توقفت اليونسكو عن تمويله إلا أنها استمرت في دعمه معنوياً.

سعادتكم،
السيدات والسادة،

لقد مر عشر سنوات على بدء العمل بمشروع «كتاب في جريدة».
إن تطور هذه المبادرة الإقليمية هو أمر مذهل، خلال السنوات السبع الماضية نشر «كتاب في جريدة» أعمال 66 مؤلف وبمعدل ثلاثة ملايين نسخة للمؤلف تم توزيعها بدون أي تكلفة مالية على كافة الدول العربية. وبهذه الطريقة تم توزيع أكثر من 200 مليون نسخة من أهم الأعمال الأدبية العربية. إن هذا الناتج الثقافي يجب أن ينظر إليه على أنه الأول في المنطقة العربية من حيث الأهمية وعدد الكتب الموزعة والمشاركة الفعالة التي ولدتها..
إسمحوا لي في هذا المجال أن أهنىء اللجنة على اختياراتهم من المؤلفين والكتب والتي عبرت عن تمثيل رائع لأهم أعمال الأدب العربي.

سعادتكم،
السيدات والسادة،

كما تعلمون فإن مشروع «كتاب في جريدة» كان محل اهتمام كبير من قبل اليونسكو منذ بدء العمل به. وفي هذا الإطار فإن الدول الأعضاء جددوا مؤخراً على أن خطة ARABIA ومشروع «كتاب في جريدة» يساهمان بشكل كبير في نشر المعرفة والثقافة العربية، كما أخذوا علم بالعمل المستمر لـ«كتاب في جريدة» الذي سيساهم في تحقيق أهداف خطة ARABIA ليس فقط في العالم العربي بل أكثر من ذلك.
إن هذا الإدراك هو بدون أدنى شك إيجابي ويوفر وجهة نظر جيدة لرؤية مستقبل المشروعين اللذين يساهمان بطرق متزامنة في تحقيق الهدف ذاته: نشر الإرث الفكري والثقافي العربية على العالم والترويج للأدب والثقافة العربية في المنطقة العربية.
من جانبي إسمحوا لي أن أسترجع مرة أخرى قناعتي، بأن مشروع "كتاب في جريدة" بخصوص مسالة الترويج للتنوع الثقافي سيستمر في تعزيز التعاون الثقافي بين العالم العربي واليونسكو.

أشكركم على إصغائكم وأتمنى لكم مناقشات مثمرة.

كويشيرو ماتسورا

مقام عطية

سلوى بكر

محمد مظلوم

قاصة وروائية من مصر.
درست النقد المسرحي بمعهد الفنون المسرحية.
بدأت تجربتها الكتابية في الصحافة العربية، قبل أن تتفرغ إلى كتابة القصة والرواية.
لها العديد من الأعمال الروائية : «ليل ونهار» و«العربة الذهبية لا تصعد إلى السماء» و«البشموري في جزأين» و«سواقي الوقت» و«كوكو سودان كباشي».
كما صدر لها في القصة : «زينات في جنازة الرئيس» و«عجين الفلاحة» و«إيقاعات متعاكسة» «وعن الروح التي سرقت تدريجياً» و«وصف البلبل».
ترجم بعض أعمالها إلى عدد من اللغات بينها الألمانية والإنكليزية والفرنسية.
تنتمي كتابة سلوى بكر إلى الأدب الأنثوي بامتياز لافت، ليس بما يقود إلى تمايز جنساني معياري، وإنما هو توصيف طبيعي يمكن معه رصد هذا التفرغ «الرسالي» الجنساني، في التأمل بالأعماق الروحية لحواء المؤسطرة بخرافات تهب من عواصف قديمة، أو المموّلة بتراب الحاضر والواقع.
ويأتي انحيازها الواضح للنوفيلا كشكل سردي (أطول من قصة قصيرة وأقصر من رواية طويلة) ليعزز هذه الخصوصية الأنثوية في تجربتها، ويشحنها بالألفة داخل الشكل نفسه.
ونوفيلا «مقام عطية» المنشورة هنا نَسْجٌ بخيط من لون آخر، في حاشية ما يمكن تسميته ببنية الأضرحة والمقامات في فن السرد المصري، وهي البنية التي أضيئت أولى معالمها بزيت (قنديل أم هاشم) ليحيى حقي مؤسسة علامة فارقة لرصد خيط مركزي ستتلاحق نسائج حواشيه ومتونه.
تلجأ سلوى بكر في معظم أعمالها إلى ملاقحة التاريخ بعلم الاجتماع، كأنها تبحث عن المهود الأولى الحاضنة لتشابكات الحدث الراهن، إلا إنها حين تجعل المهد هنا متجسداً بضريح تنطلق منه مسارب التأويل لظواهر الحياة، فهي ستتبدى منقّبة جادة في طبقات وجدان الإنسان بمصر عبر التاريخ، ليس (مقام عطية) إلا طبقة من طبقاتها إذ سنقرأ لها تنقيبات أكثر تجذراً، عبر عدد من رواياتها اللاحقة.
يبدأ الاهتمام بالضريح بعد رواج أقاويل بين الناس عن كرامات سيدة ماتت منذ فترة، ليشكل اللاوعي الجمعي قشرة رقيقة تمزج كرامات الأولياء المحليين بقداسة الإنسان عبر عصور الدين، والنهضة، والعلم ، وكرامات أحفاد الفراعنة.
بيد أن هذه القشرة سرعان ما تتكسر على يد صحفية وزوجها منقب الآثار اللذين تكتمل معهما عدة التنقيب والكشف لتستعير الساردة روح إيزيس الفرعونية فتخلط البحث بالسرد، المعضلة بمساربها، مثلما تختلط في الجانب الآخر الجثة بالآثار، في دلالة عميقة تشير إلى أن هذه الكرامات التي صارت تتصاعد من ضريح (الست عطية) ما هي في الواقع سوى الطبقات المتعددة من حضارة عميقة لأرض لا تقوم مقابرها إلا كما تقوم الأوراق والثمرات على جذر ممتد، حتى يصبح هذا الترابط بين الثمرة والجذر، ملتصقاً بحكاية ممتعة تسم الواقع بسحنتها الأسطورية.
ومع هذا الصوت المضمر للساردة، يصبح السرد نفسه مناسبة ومنبراً لاجتماع أصوات الشخصيات، وهي تدلي بشهاداتها حول المقام وكرامات الست، وتقوم بنبش حياتها وتاريخ أسرتها من زويا متعددة!
وعبر تقطيع مشهدي لافت، يحقق مفصلية واضحة بين تلك الشهادات، تنبثق دراما العمل منذ الشهادة غير المنتظرة (لعاشق قديم) فتنعطف بالرواية نحو منعطف آخر مع شهادة صاحبة العمارة التي كانت تقطن فيها عطية، لنجد أمامنا رؤية مختلفة لتلك الشخصية، أين هي عطية إذن: في الدناسة أم في القداسة؟ في صورة إيزيس، أم في صورة ربة المنزل؟، وقبل ذلك هل هي في صورة الصحفية أم في صورة عطية نفسها؟
الجواب على سؤال كهذا لا يبدو متاحاً لأن التنقيبات اللازمة، لفصل ماء الماضي عن طينة الحاضر وكشف التلازم بينهما، لا تبدو ممكنة الآن أو في أي وقت آخر.
تعدد الأصوات في الرواية لا يجعل منها صوتاً لجوقة موحدة، وإنما ثمة صولات فردية ممنتجة بعناية، فهذه الأصوات وإن بدت في ظاهرها مجتمعة بصوت الصحفية الساردة، إلا إنها تفترق عن بعضها في سياقات متباينة، وتبدو غير متجانسة أحياناً.
لا يغيب المزاج الشعبي ولا بلاغة البيئة المصرية عن روح السرد سواء استعار مستوى هذا السرد، صيغة الحدوتة المصرية، أو تقنع بأسلوبية فن الرواية مهما كانت بيئتها، على أن ثمة نبرة تراثية في السرد تتجلى أحياناً في الاستعارة المقصودة للزوميات الحكي الشفاهي ولذلك فإن شكل السرد لدى سلوى بكر يعد



نوعاً من مزج التراث الشفاهي بفن الرواية بوصفه مستوى تعبيرياً داخل فن الكتابة نفسها.
إنها حكاية ما بين الأهرامات والبرابي، وبين المقامات والأضرحة التي تتكاثر حولنا، حيث يقع حدا الحياة والموت لتمتد بينهما بتواز، حكاية أخرى لعزة يوسف أو إيزيس المعاصرة، وهي تدخل في غموض الراوية، وتغّيب معها، حيث نتحسس لها خيطاً خفياً يمسك بهذا العمل من طرفيه: مستهله ونهايته.
وعبر ثلاث قصص قصيرة تنشر إلى جانب مقام عطية هي: (كل ذلك الصوت الجميل الذي يأتي من داخلها) و(عن الروح التي سَرقت تدريجيا) و(انتظار الشمس) سنصطدم من جديد بتفاصيل أخرى لمحنة المرأة – حين تصبح مجرد الرغبة في التعبير بالغناء مرضاً نفسياً – أو في تلك الدراما المقلوبة على رأسها تحت الشمس حين يصبح الانتظار زمناً مجدباً، رغم عشب الأمل! أو بانسحاقها تحت وطأة الاغتراب الروحي، والاستلاب الشعوري للجماليات والدهشة وضمور التخيل والخلق، نتيجة لقسوة الحياة والتحولات التي نشهدها بتأثير الآلة على الإنسان والإحلالات التي تستبدل المتعة بالمنفعة، لتحل قوانين الضرورة في العلاقات الاجتماعية والعائلة محل الخيار الشخصي، ولترسم نهاية درامية لأحلام جيل السبعينات، وهو يترهل ويشيخ أمام شاشة التلفزيون بعد أن كان يصنع الحياة ومشاهدها في المسرح الواقعي في الشارع، حيث تؤرخ لذلك الغروب الروحي بحادثة حريق الإوبرا المصرية 1971 وتشكل العائلة (العصرية) كبداية لذلك التحول المريع في صميم الحياة، فيما تكلح بهجتها بالتدريج.

أسيا حبيقة مسابكي

من مواليد جزين، جنوب لبنان، 1947.
درست الهندسة الداخلية في الجامعة اللبنانية، معهد الفنون (1979)، ثم تابعت دراسات عليا في الرسم حيث تخرجت سنة 1990. تمتاز لوحتها ببناء داخلي يرصد المفردات التي تملأ المكان وتحولها إلى عناصر تتآلف وتتحرك لتشكل تكوينات تعبيرية مفعمة بألوان متصادمة.
تتميز تجربتها الأخيرة، المعروضة في هذا العدد، بالاستعانة بالحاسوب بمرحلة أولى لإنتاج صور معينة تقوم الفنانة فيما بعد بتلوينها بالمواد المختلفة، في محاولة لصهر الصور الرقمية الحديثة بتقاليد الرسم الكلاسيكي.
أقامت معارض عديدة في لبنان والخارج، آخرها مشاركتها في بينالي طهران. تعيش وتعمل في بيروت.

الراعي
محمد بن عيسى الجابر
MBI FOUNDATION

المؤسس
شوقي عبد الأمير

المدير التنفيذي
ندى دلاّل دوغان

الإستشارات الفنية
صالح بركات
غاليري أجيال، بيروت.

المَقَرّ
بيروت، لبنان
يصدر بالتعاون
مع وزارة الثقافة

تصميم و إخراج
Mind the gap, Beirut

المحرّر الأدبي
محمد مظلوم

سكرتاريا وطباعة
هناء عيد

المطبعة
پول ناسيميان،
پوميغرافور برج حمود بيروت

الإستشارات القانونية
«القوتلي ومشاركوه. محامون»

الإستشارات المالية
ميرنا نعمي

المتابعة والتنسيق
محمد قشمر

الصحف الشريكة
الأهرام القاهرة
الأيام رام الله
الأيام المنامة
تشرين دمشق
الثورة صنعاء
الخليج الإمارات
الدستور عمّان
الرأي عمّان
الراية الدوحة
الرياض الرياض
الشعب الجزائر
الشعب نواكشوط
الصحافة الخرطوم
العرب طرابلس الغرب وتونس
مجلة العربي الكويت
القدس العربي لندن
النهار بيروت
الوطن مسقط

خضع ترتيب أسماء
الهيئة الإستشارية
والصحف للتسلسل الألفبائي
حسب الاسم الأول

كتاب في جريدة
العدد السابع والعشرون
التسلسل العام: عدد رقم 93
(3 أيّار 2006)

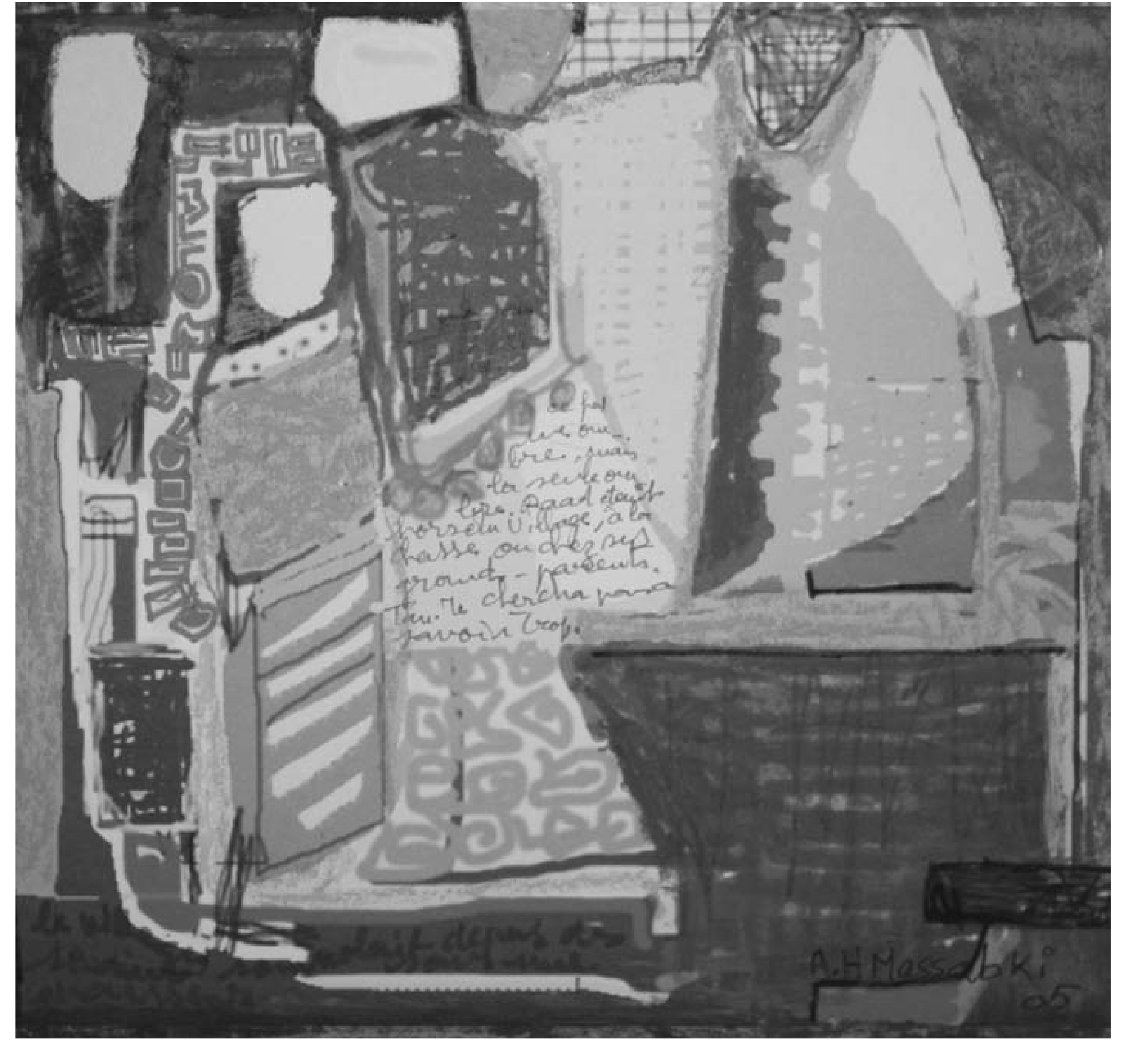
ص.ب 1460-11. بيروت، لبنان
تلفون / فاكس 630 248 (1-961+)
تلفون 219 330 (3-961+)
kitabfj@cyberia.net.lb
kitabfijarida@hotmail.com



مقام عطيّة

وقصص قصيرة

سلوى بكر



أم حوريس

في أحد الأيام، دعيت إلى مكتب رئيس تحرير المجلة التي أعمل بها، على وجه السرعة، وعندما دخلت مكتبه الفخم، الذي يشغل أوسع حجرات المجلة، كان عنده مدير التحرير أيضاً، كان غاطساً في كرسي جلدي داكن اللون ويحمل بيده الطريّة الصغيرة، التي طالما أثارت قرفي واشمئزازي، فنجان قهوة ويرتشف منه قليلاً. أخذ كلٌّ منهما يرحب بي ترحيباً غير عادي، أرابني، حتى أني شعرت بالخوف من مدير التحرير، عندما راح يضع يده في جيبه ويبتسم، تصورت أنه سيخرج مسدساً ويطلق منه رصاصة في اتجاهي. جلست على كرسي بجانب طاولة رئيس التحرير، وبعد مقدمات تقليدية، عرفت أني مكلفة بمهمة صحفية خاصة تتعلق بمقام الست عطية.

لماذا أنا التي اخترت للقيام بتلك المهمة، دون المائة والخمسين محرراً، الذين يعملون في المجلة؟ لا أدري. كان الأمر غريباً وغير مفهوم بالنسبة إليّ، فأنا لست على علاقة طيبة برئيس التحرير، أو مدير التحرير، أو حتى رئيس القسم الذي أعمل فيه؛ حتى يمكن اختياري لعمل مثل هذا الموضوع الخطير جداً والخاص جداً كما قال لي كل من الرجلين، ثم إذا كان هذا الموضوع ضربة صحفية كما يقولان، فلماذا يخصاني بها دون الآخرين من أتباعهم وصبيانهم الكثيرين في المجلة. وما دعاني للاستغراب أكثر، هو أن الموضوعات التي من هذا النوع، يقوم بها أكثر من محرر، عادة، اثنان أو ثلاثة على الأقل، لكن، على رغم كل تساؤلاتي هذه، فقد قبلت القيام بتلك المهمة، وأنا سعيدة فعلاً؛ لأنها لن تخلو من إثارة، نظراً إلى طبيعة الموضوع الغرائبية، حيث هناك المقام، وما أثير حوله من حكايات، هي أشبه بالأساطير والخرافات، لكن الإثارة الحقيقية، والتي تشدني إلى القيام بذلك الموضوع، هي دخول مصلحة الآثار طرفاً فيه، حيث قررت التنقيب حول المقام. كنت فخورة حقاً؛ لأني سأقوم بمهمة خاصة وغريبة، لذلك قررت أن أتعامل معها، باعتبارها محكاً أساسياً، أختبر من خلاله مدى قدرتي وكفاءتي كصحفية صغيرة ناشئة.

التقيت الأشخاص أطراف الموضوع، وجمعت المادة وقمت بتحريرها، وخلال كل ذلك، كنت أطلع مدير التحرير على تحركاتي خطوة خطوة، وأتلقى منه ملاحظات على ما أنجزه من عمل، لم يكن أحد وقتها يعرف من العاملين في المجلة، طبيعة ما أقوم به، بما في ذلك رئيس القسم الذي أعمل فيه، وعندما أوشك الموضوع على الانتهاء، أعلنت المجلة على القراء خبر اعتزامها نشر تحقيق حول مقام الست عطية، بينما كنت أضع اللمسات الأخيرة في التحقيق، بالحوار مع حبيبي وزوجي المرحوم علي فهيم.

يصعب بالنسبة إليّ أن أكتب، عما جرى بعد ذلك، بالأحرى لم يعد ذلك مهماً، أو ربما أعتقد أنه لن يكون مهماً بالنسبة إلى أحد غيري، لكن المهم هو أن الموضوع كله، جرى عدم نشره بعد ذلك الإعلان، بل لم تنشر منه حتى حلقة واحدة، وعندما سألت مدير التحرير، أن يردّه لي، لأعيد قراءته، قال إنه فُقد وضاع ضمن موضوعات ومقالات أخرى ضاعت أيضاً، ثم طلب مني أن أنسى الموضوع تماماً، ولا أحدث به أي إنسان.

أأنسى موضوع مقام الست عطية؟. وقفت مبهوتة أسائل نفسي، وأنا أحملق مذهولة، في ذلك الرجل مدير التحرير، صاحب الوجه الأنثوي المستدير، والنظرات اللئيمة القاسية، التي لا تخفيها ابتساماته الدائمة كلما تحدث. لم أستطع أن أقول شيئاً، بالأحرى، لم تكن هناك جدوى، من أية تساؤلات أو أية تعليقات، بخصوص هذا القرار، الذي كان بمثابة الستار الأخير، الذي تكشف عن آخر فصول حكاية مقام الست عطية، ومنذ تلك اللحظة، اتخذت أنا أيضاً قراراً، فأنا لن أتجاهل ذلك الموضوع أبداً، بل يمكن القول إنه لم يعد في مقدوري تجاهله، بأية حال من الأحوال فقد عشت، أعمل تحقيقاً حول كل ما أثير في موضوع مقام الست عطية، شهوراً طويلة، أفكر به، ليل نهار، كما أنه كان الموضوع الذي فتّح عينيّ على حقائق غريبة، لم أكن أعرفها من قبل، وأخيراً، فإن مقام الست عطية، كان وراء أجمل قصة حب، عشتها لحظة فلحظة، وساعة فساعة، فلولا ذلك الموضوع، ما تعرفت على ذلك الرجل الكامل، الصامت صمت الآلهة، أوزوريس الطيب – كما كنت أناديه – الذي ولد خارج الزمان؛ ليبقى الضمير الإنساني إلى الأبد، حياً لا يموت.

لقد حزنت كثيراً، وتألمت بما يكفي، لكني سعيدة الآن، ومطمئنة أيضاً حيث بت أحمل في أحشائي حوريس ابن أوزوريس، كما أني تحررت من همّ كان يثقل كاهلي، ويعذب نفسي، فكل ما عرفته عن مقام الست عطية لن يظل حبيس نفسي، وحبيس المجهول، فها أنا أنشره على الجميع، جميع أولئك الذين يهمهم الأمر، وأقول لهم كل ما عرفته عن مقام الست عطية، ما قاله الناس بالأحرى، وما قاله زوجي الأثري علي فهيم، وأولاً وقبل كل شيء ما أعلنته مجلة الصباح بخصوص ذلك الموضوع، وسارعت بالتخلي عنه لسبب، أعرف أن الجميع سوف يعرفه ببداهة عند الانتهاء من قراءة كل ما تحمله هذه الأوراق حرفاً حرفاً، وكلمة كلمة، أقدم أنا عزة يوسف، المحررة سابقاً بمجلة الصباح، ذلك الموضوع إلى كل من يهمه الأمر، في ضوء التسجيلات الصوتية الحية التي حصلت عليها من الذين تحدثوا عن مقام الست عطية، أما شهادة الشاعر المجهول، فقد جاءتني في خطاب بريدي، على عنوان منزلي، بعد فترة قصيرة من نشر خبر اعتزام المجلة القيام بتحقيق صحفي حول مقام الست عطية، أما كيف عرف صاحب الرسالة، بأنني المنوطة بالقيام بذلك التحقيق من المجلة؟، ولماذا أرسل هذه الرسالة على عنوان منزلي؟، فلا أدري السبب وراء ذلك حتى هذه اللحظة، وعموماً فقد حيرني أمر هذه الرسالة كثيراً، لكني في النهاية توصلت إلى أمر بشأنها، فربما كانت كلماتها، للشاعر المعروف الأستاذ خليل يوسف، صاحب القصيدة الشهيرة "عطية في القلب يا عين"، وللحقيقة فقد حاولت الاتصال به والحديث معه، لكنه رفض رفضاً قاطعاً الالتقاء بي، أو الإدلاء بأي حديث صحفي.

أكاذيب الصباح

اهتمت مجلة الصباح، بما نشر في الصحف، خلال الفترة الأخيرة، حول أن هيئة الآثار تنوي الحفر والتنقيب، في منطقة مقام الست عطية بالقرافة الكبرى، وداخل المقام ذاته، وذلك للبحث عن كشف أثري هام، لم يحدد تاريخه بعد.

لذلك قامت المجلة، بعمل تحقيق صحفي واسع حول الموضوع، الذي أثار اهتمام الرأي العام، والدوائر الأثرية في العالم؛ حيث توقع المراقبون، وفقاً للأخبار المنشورة، أن يؤدي هذا الكشف إلى نتائج إيجابية جديدة، ربما قلبت النظريات التقليدية، المتعلقة بالتاريخ المصري القديم رأساً على عقب، كما أن هذه النتائج، ربما حسمت، جميع وجهات النظر المتعلقة بأصل المصريين، ومنشئهم التاريخي، والجهة التي جاءوا منها على وجه التحديد إلى وادي النيل.

إن اهتمام المجلة بالموضوع، ذلك الاهتمام الشديد، جاء على ضوء ما قيل وتمحور حوله الاهتمام، بمحاولة الكشف الجديد، وهو أن ذلك الكشف سوف يجيب إجابة حاسمة على السؤال الدائم، الذي أشيع منذ زمن بعيد، سواء من قبل علماء الآثار الغربيين أو من قبل أولئك الذين لا يرون أية علاقة رابطة بين الماضي والحاضر، وهو السؤال الذي يقول: هل يمت المصريون الحاليون، بأية صلة، للشعب الذي عاش في وادي النيل منذ آلاف السنين، وحقق تلك الإنجازات الحضارية الكبرى؟.

لقد دفع ذلك التساؤل الكثيرين بعيداً، حيث الشطط الفكري والخيال الكاذب، بل والافتراء المقصود في كثير من الأحيان، فذهب بعض من هؤلاء إلى أن المصريين القدماء، جاؤوا من كوكب آخر تتقدم حضارته عن حضارة الأرض بآلاف السنين، وهبطوا وادي النيل؛ حيث أسسوا حضارة الفراعنة العظام، وقال آخرون إن بناة الأهرام، قد اندثروا وفنوا بمرور الوقت والأيام، فلا صلة للمصريين الآن بمن عاشوا على ضفاف النيل المجيد منذ خمسة آلاف عام، وإلاّ هل من المعقول أن تكون هناك أية صلة بين الذين استخدموا القيثارات الذهبية في ترانيم المعابد، وبين أولئك الذين يغنون الآن السح الدح امبو؟. وهل يمكن أن تنتمي تلك النسوة البدينات اللواتي في أحجام الفيلة، لنساء فرعون الجميلات، ذوات القدود المشوقة، المرتديات الغلالات الشفيفة، المبرزة لجمال الجسد السامي؟

إن أية مقارنة بين الحاضر والماضي القديم، غير واردة، وفقاً لآراء أولئك المُنظّرين لمثل هذه الأقاويل، كما أن العقل لا يستطيع احتمالها، لذلك فإن مجلة الصباح، انطلاقاً من كل حب لهذا الوطن، وحرص عليه، تتمنى أن يكون هذا الكشف الجديد، مخرساً لكل تخرصاتٍ تشكك في أصول شعبنا، وأن يأتي بالبرهان الساطع على حقيقة انتمائه الحضاري.

غير أنه قبل البدء في نشر هذا التحقيق الواسع، الذي سينشر تباعاً على حلقات؛ نظراً إلى اتساع مادته، وتشعب قضاياه، هناك عدة ملاحظات لا بد منها؛ حتى لا يحدث أدنى التباس عند القارئ، تتلخص فيما يلي:

– إن هناك تضارباً شديداً – حتى هذه اللحظة – حول شخصية الست عطية، وكراماتها الدينية، ومنشئها وأصلها.

– مقام الست عطية، هو مقام حديث الإنشاء نسبياً، كما أن التصريح الصادر من وزارة الداخلية بمولدها السنوي، لم يصدر إلا منذ بضع سنوات قريبة.

– هناك محضر شرطة، حرر منذ فترة، بسبب نبش تربتها قبل إقامة المقام، قيّد ضد مجهول، وقد قيل وقتها إن التربة نبشت أكثر من مرة.

– المجلة لم تتمكن من الحصول على صورة واحدة للست عطية خلال التحقيق، على رغم معرفة الست – قدس الله روحها – بأناس كثيرين، ومشاركتها كما قيل في بعض المناسبات العامة. لكن الفنان علي حسني، قام بعمل بورتريه تخيلي للست عطية، بناء على طلب المجلة، ووفقاً للشهادات التي قدمت، وتتعلق بشخصيتها وتكوينها.

– رفض التربي، وخادم المقام، الكلام تماماً مع مندوب المجلة على رغم أن ذلك الرجل يعتبر من أهم حلقات الموضوع، لكن الصباح نجحت في جمع بعض المعلومات المتعلقة به، والتي يمكن أن تلقي ضوءاً على دوره الحقيقي، كذلك رفضت هيئة الآثار الإدلاء ببيانات تفصيلية شافية حول المسألة، واكتفت بتصريح مشابه لما ورد بالخبر، سوف ننشره من باب توخّي الأمانة والدقّة الصحفية.


A.H. Massabk

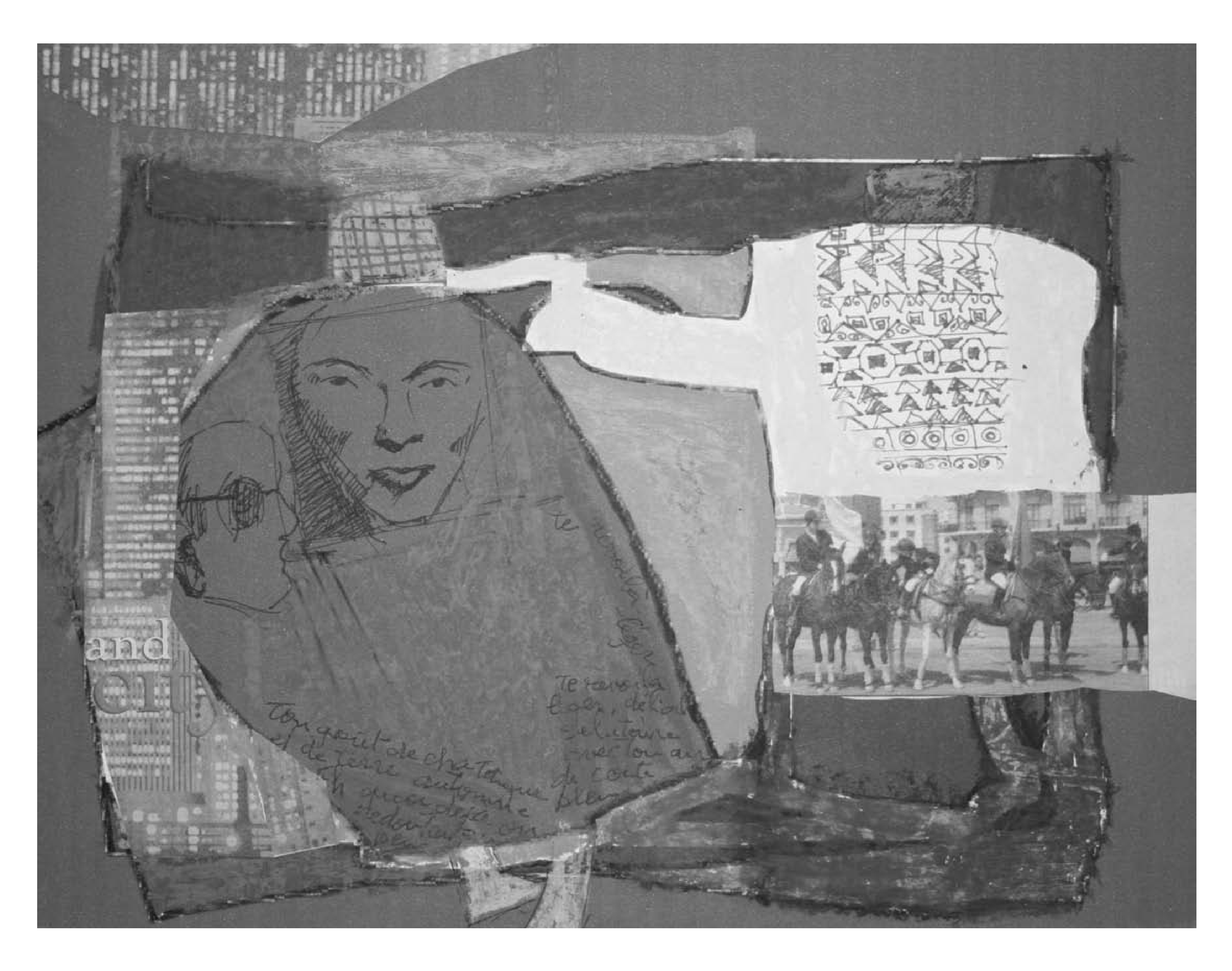
شهادة... شهادة...
الولد الوحيد... متلقّي الخبر الحزين

والدتي – الله يرحمها – كانت سيدة محترمة، أحبّت الناس وأخلصت لهم فأحبوها وقدروها، والله كرّمها في موتها، مثلما كانت كريمة معطاء في حياتها؛ وأنا لم أكن أعرف أنها توفيت إلا لحظة وصولي المطار، لأنهم قالوا لي في التليفون، والدتك مريضة يا فؤاد، واحضر بسرعة لكني شعرت أن الحالة حالة وفاة؛ لذلك حجزت على أول طيارة طالعة إلى مصر، ولحسن الحظ، وجدت مكاناً في اليوم التالي للمكالمة.

وفي المطار بمجرد أن رأيت محمداً ابن عمي، وزوج أختي نادية بكيت على الفور، فالخبر كان في العيون، وأنا كنت مصراً على الذهاب من المطار للترب مباشرة، ولم أستطع الانتظار؛ لأن أعصابي انهارت تماماً، حتى أني بقيت أنهنه وأشهق كما الأطفال ولم أستطع التماسك، والحقيقة أن ضميري كان يؤنبني؛ لأني لم أرها منذ أن غادرت البلد للعمل في الخارج منذ حوالي أربع سنوات ولما وصلنا الترب، وفتح التربي الحوش، فوجئنا بأن التربة مفتوحة وكانت مفاجأة كبيرة للجميع، ونزلنا فوراً لنشوف ما جرى، وكان إحساسنا أنه لا بد أن تكون هناك سرقة لجثة المرحومة؛ لأن هذا يحدث كثيراً في الفترة الأخيرة بسبب طلبة الطب، وعملية التشريح، لكن المفاجأة الأغرب، هي أن الجثة كانت سليمة تماماً، والكفن في حالة طبيعية، ما عدا أنه مشرط كما جرت العادة لمنع سرقته، وكان التربي هو الذي لمح أولاً ذلك الشيء الذهبي الغريب، والذي كان يبدو أقرب من حيث الشكل، إلى هيئة زهرة اللوتس، وكانت له ساق طويلة ممتدة في الأرض، والحقيقة أن ذلك كان المفاجأة الثانية بالنسبة إلينا، ووقفنا لفترة مبهورين؛ لأن ذلك الشيء كان منظره جميلاً إلى حد الخرافة، ولو كان معي صوّارة وقتها لصوّرته، وأنا أقول صوّارة ولا أقول كاميرا؛ لأن الكلمة الأولى عربية سليمة، وربما يكون من المفيد هنا التنويه بأنني عالم لغويات، أدَرِّسُ العربية في جامعات أوروبية، ووصف ذلك الشيء الذي رأيناه مسألة صعبة جداً الآن، لكنه ترك شعوراً قوياً وغريباً في نفسي. ولما تحرك التربي ناحيته ليمسكه أحدث صوتاً أشبه برفيف أجنحة طائر صغير، ثم تلاشى وتبدد تماماً، خصوصاً عندما حاول التربي الإمساك بالساق، وأخذ الرجل يتشهد ويحوقل، بينما أخذ ابن عمي يقرأ سورة الغاشية، وسورة الحاقة، وما شاهدته بأم عيني شاهده زوج أختي وابن عمي والتربي طبعاً؛ مما جعلنا نتوجس ونخاف جميعاً، ونغادر التربة فوراً، ثم نعيد غلقها، وأنا لا أعرف كيف تسرب خبر ما جرى بعد ذلك، حتى أصبح موضوعاً كبيراً على هذا النحو، والتربي لا يمكن أن يكون قد سرّب الخبر؛ لأنه اتفق معنا على ذلك احتراماً لحرمة الموتى، وسمعة الأسرة؛ ولأنه يمت لنا بصلة قرابة من بعيد، أما عن تفسيري لهذه الواقعة وما جرى بعد ذلك، فأقول إن هناك أشياء كثيرة واردة في هذا العالم، وأنا رجل عقلاني، عشت سنوات طويلة في أوروبا، وهناك تحدث ظواهر من هذا النوع أيضاً، وهم يهتمون بها جداً، ويتعاملون معها بجدية وعلمية شديدة، لكننا هنا بلد متخلف، والناس ليست على مستوى ثقافي مناسب في الأغلب الأعم، لذلك حدث ما حدث، ورأيي أن أمي كانت امرأة عادية تماماً، لكنها كانت شديدة الطيبة، بل كانت طيبة إلى حد الاستفزاز، استفزازنا نحن أولادها، فهي كانت تفضل علينا الناس في بعض الأحوال، وتقدم لهم الكثير، مما قد نحتاجه نحن، وعلى رغم أنها علمتنا وأحسنت تربيتنا، لكنها كانت تفعل أشياء كثيرة على حساب مصلحتنا وراحتنا، وأنا أذكر أن أخواتي البنات، كثيراً ما كن يسهرن ليالي طويلة قبل العيد الصغير، أو العيد الكبير لخياطة ملابس الجيران والمعارف دون مقابل، بل كان يحدث أن تشتري أمي أحياناً قماشاً من مصروف البيت، لتصنعه أخواتي ملابس لبعض الأطفال الفقراء واليتامى. عموماً أمي لم تكن طبيعية في عطائها للناس، فالمسألة لم تكن مسألة كرم، لكنها كانت تفعل ذلك، على نحو يبدو معه أن ثمة شيئاً داخلياً يدفعها إلى فعل ذلك، ولنقل إنها كانت ميالة إلى النبالة أو الفروسيّة، وفي أوروبا الآن يدرسون مثل هذه الحالات، من خلال تتبع مدى نشاط الهرمونات في الجسم البشري، وأنا أرى أن أمي ربما عانت من عدم التوازن الهرموني في جسمها، فقد كانت تبدو حزينة مكتئبة، عندما لا يزورنا أحد، أو لا يقيم عندنا بعض الضيوف لفترة من الوقت؛ فقد كان يحلو لها استضافة بعض الأقارب والمعارف لأيام أو أسابيع، وفي بعض الأحيان، كانت الضيافة تمتد شهوراً طويلة، وللعلم فقد كان ذلك يحدث بصرف النظر عن وضعيَّة هؤلاء الناس، أو مستواهم الاجتماعي، فهي كانت تعامل من هم أدنى منها اجتماعياً، ومن هم أعلى منها على النحو نفسه، وعلى أي حال، أستطيع القول إن أمي كانت شاذة اجتماعياً، لكنها لم تكن والعياذ بالله سفيهة، أو غير قادرة على امتلاك زمام نفسها، فهي كانت عادية في بقية تصرفاتها، ونحن لم نملك شيئاً، والحمد لله، كان يمكن الخوف على تلفه أو ضياعه، وإلا ربما كان الشيطان قد أغوانا، وفعلنا مثل يفعل بعض الأهل والأبناء، فيحجرون على ذويهم الذين يبددون ممتلكاتهم.

على مستوى العلاقة بنا، كانت حنونة طيبة، على رغم أنها لم تكن ربّة بيت بالمعنى التقليدي؛ فهي لم تكن تجيد طهي الطعام وترتيب البيت أو تنظيفه، وربما كان ذلك بسبب تربيتها المدللة في الصغر، لكن أقول إنها كانت حريصة على تربيتنا وتعليمنا أفضل ما يكون، حتى صرنا نتبوأ مناصب ومراكز اجتماعية مرموقة، وهي لم تفرق بين ولد وبنت في التربية والتعليم، فأعطت لنا حرية التصرف وحرية السلوك، وقد كان ذلك يكلفها الكثير في بعض الأحيان، ويعرضها للانتقاد، خصوصاً عندما كانت أخواتي يعدن متأخرات في الليل من السينما أو خلافه، لكن ذلك لم يقلل من حب واحترام الناس لها. بصراحة أنا لا أجد تفسيراً مقبولاً لما حدث، ومسألة الكنز هي مسألة مشكوك فيها بالأصل، وأنا لا يمكن أن أشك في التربي؛ لأنه لو كان قد فتح التربة بعد ذلك، لكان الأمر قد انكشف، فنحن عاودنا الذهاب في اليوم التالي للحادث، ثم في الأخمسة الثلاثة التي سبقت الأربعين، بل في اليوم الأربعين ذاته، أما عند فتح المقبرة للمرة الثانية، فالتربي هو الذي اتصل بالبوليس ليثبت الواقعة؛ لأنه دخل الحوش مبكراً في الصباح ليسقي الصبّار الموجود فيه، وعندما وجد التربة مفتوحة خاف وجرى، وأبلغ البوليس؛ لأنه كما قال لنا بعد ذلك، خشي أن يحدث شيء، قبل أن نأتي؛ لأن إبلاغنا كان يستلزم كثيراً من الوقت،





بسبب المواصلات، وعندما عاد عسكري البوليس من القسم، لم ينزلا إلى القبر مرة واحدة – كما قال – واكتفيا بسد المقبرة جيداً، وإغلاق الحوش، ولما عرفنا ذلك أنا وأخواتي تضايقت في البداية، لأنه كان من المفروض، أن يشوف المقبرة من الداخل، لكن عمي الشيخ سعد جارنا، هو الذي أقنعنا بصحة عدم فتح المقبرة مرة أخرى، وطبعاً ليس لأحد من أفراد أسرتنا مصلحة فيما حدث، بالعكس أقول، إننا نعاني الآن من مسألة تحويل المدفن إلى مزار بعدما بنى الناس فوقه المقام، وعملوا ما عملوه من مولد وخلافه، ومنعاً للشبهات، فقد رفضت رفضاً مطلقاً، باعتباري ابنها الوحيد، أن يقام صندوق للنذور، أو أي شيء من هذا القبيل، وتكفي الشموع عند الزيارة، وقراءة الفاتحة، وقد رأيت أمي عدة مرات في المنام بعد وفاتها، في عدة أحلام عادية، ولو كانت رواية حلم الشيخ سعد جارنا صحيحة، فالأولى أن تأتيني أنا، أو واحدة من أخواتي البنات، في الحلم، وهنا أحب أن أشير، إلى أن أمي، كانت من حيث التدين، امرأة عادية، تصلي وتصوم، وتؤدي الفرض وتزكي، ولم تحج، لأنها فضَّلت، أن تبيّض الشقّة بالزيت، وتشد كراسي الصالون، وتغيّر تنجيدها، لما تجمّع معها قرشان، بعد سنوات من وفاة والدي؛ لأن أختي صفاء، كانت على وشك الزواج، ونحن لم يكن بيننا أحد متزمتاً من الناحية الدينية، ثم إن أمي لم تكن لها أية كرامات في حياة عينها، حسب معرفتي بها، أما حكاية طيران نعشها في الجنازة، فأنا لم أكن حاضراً ساعتها كما قلت، وأشك في صحتها، وهذه أقوال العوام، الميالين إلى التهويل، وأقول إنني عارضت بشدة في مسألة المقام عند البداية، لكني رضخت أمام أهالي الحي وسكان الترب، والشيخ سعد جارنا، وبصراحة، كان السبب الأساسي لموافقتي، يرجع لوضعي الوظيفي أولاً وأخيراً، فمركزي حساس كما هو معروف، وما تردد عن كوني شيوعياً في السابق، كان من الممكن أن يثار مرة أخرى لو رفضت؛ لأن بعض الناس لم ينس ذلك، منذ أن قُبض عليّ، في إحدى المظاهرات في مطلع شبابي، وأقول ذلك بصراحة؛ حتى يمكن تفهم الموقف كله.

علاقتها بأبي مسألة لا يمكنني الخوض فيها، بسبب كوني أصغر أخواتي، وتفصلني عن أختي الكبرى عشرون سنة بالضبط، وعندما توفّي والدي، كنت صغيراً، وأنا لا أتذكره جيداً، لكن حسبما عرفت عندما كبرت وبدأت أعي الأشياء والناس بعد ذلك، هو أن أمي وأبي لم يكونا على وفاق، وأن أبي كان يسميها الأستاذ عطية، لكن يوم وفاته كان أسوأ يوم في حياتي، منذ ذلك الوقت انقطعت أمي عن إرضاعي؛ لأن لبنها جفّ، وهي كانت تنوي إرضاعي حتى أبلغ السادسة من عمري، باعتباري الذكر الوحيد لها بعد أربع عشرة ولادة تبقّى منها ثماني بنات وأنا.

هناك حادثة صغيرة، ربما تلقي الضوء قليلاً على شخصية أمي، وهي واحدة من حوادث كانت كثيراً ما تحدث في بيتنا، وأنا أتذكرها حتى الآن؛ لأنها أثرت في نفسي كثيراً، ففي إحدى المرات كنت أجلس للمذاكرة في وجود أستاذ لي هو جارنا الطبيب الذي كان على وشك التخرج من الجامعة، كانت إحدى أخواتي شبه مخطوبة لهذا الشاب، فجأة، وجدت أمي، تصفعها على وجهها، لا لشيء إلا لأنها صفعت بدورها خادماً صغيراً في مثل عمري؛ لأنه فتح دشّ الماء على شعرها المكوي دون أن يقصد لمّا كانت منحنية لغسل يديها المبللتين بالصابون، وطلبت منه فتح حنفية البانيو؛ لأن حنفية الحوض لا تشتغل، وقد قالت لها أمي غاضبة: لو كان أخوك لما فعلت ذلك. والحقيقة أن أمي كانت تعامل الخدم على نحو غريب جداً، فهذا الولد ظل يتردد عليها حتى بعد أن كبر وأصبح موظفاً في الحكومة، وأمي هي التي أدخلته المدرسة بنفسها، وكانت تشتري له الثياب، وتجعله لا يقوم بعمله كخادم؛ حتى يتمكن من المذاكرة، ولا يضيع وقته في الأعمال المنزلية، وعلى رغم كل ذلك، فقد كانت تعطي لأمه راتباً في مطلع كل شهر لقاء وجوده عندنا.

أعمال الحفر لن تتم في قبر أمي، فاحترام مشاعر الناس ومراعاتها واجب، قبل كل شيء، ولكن الآثار يمكن أن تحفر حول القبر، أو بالقرب منه، وذلك في حال وجود دلائل تشير إلى وجود ما يستحق الكشف عنه في هذه المنطقة. وأنا أحذر المسؤولين من استفزاز الناس، وإن لم يأخذوا بكلامي، فما عليهم إلا أن يحضروا إلى مكان المقام، ويشاهدوا بأنفسهم ما يفعله الناس في مولد الست عطية، لقد صار لمقام عطية صيت كبير، وأحبابها صاروا يأتون حتى من أسوان والسودان، وقد طالب بعض أقربائنا في البلد، بنقل رفاتها إلى هناك؛ حتى لا يتكبد أهل البلد مشقة السفر والحضور، إلى هنا كل عام، لكني رفضت بشدة، لعلمي أن وراء ذلك مآرب وأطماعاً، فالبعض يريد استغلال الفرصة، وتنشيط أحواله بدرجة أو بأخرى، مستغلاً مناسبة المولد، كما أنه لا يجب إقلاق راحة الميت، فما بالك إذا كان ذلك المتوفي هو أمي.

الشيخ سعد

ربنا وحده أعلم لماذا أتكلم الآن، فل٠ قد كنت أفضل السكوت؛ لأن هذه الأمور لا تصح اللجاجة فيها، والمسألة هي أن الإنسان لو أراد أن يؤمن فلا بد أنه يؤمن، أما ذلك الذي يريد برهاناً يمسكه بيده، ويراه بعينيه، ويذوقه بلسانه، فلن يؤمن حتى تقوم القيامة، فالله عز وجل يقول: «فطرة الله التي فطر الناس عليها». أتكلم، لا لأثبت أو أنفي، أو أقنع أو أشفي غليل فَضُولٍ مُراقب، يعني البحث عن ملح وطرف وغرائب، فأنا ضد اجتماع الدين والدنيا، وإلا كنت قد خضت في سلك المشايخ، وبحثت عن أرقى المناصب، عبر الاشتغال بدين الدنيا، لكن تكفيني من الحياة تجارتي بالنهار، التي لا تشغلني عن الحبيب في الليل، غير أن ما حدث قد حدث، وعطية هانم أنعم الله عليها، فأصبحت ولية من أوليائه، ورؤيتي لها صادقة، ولو كره المتأولون، ومن كرم الله أن أحبابها، كانوا من الكثرة؛ بحيث أقيم المقام بجهودهم، ولم يحل الحول، إلا وكان مزاراً ومناراً للهدى واليقين. وقبل كل شيء، أقول لك، إني أعرف الست عطية أباً عن جد، فجدها هو الذي ربى أبي، لما مات أبوه، وأبوها كان نداً لأخي في صباه وشبابه، ولما أعطاه الكريم عطية بعد أن مات لامرأته سبعة ذكور، أسماها بذلك الاسم؛ تيمناً بعطاء الله، وامتثالاً لإرادته بعد أن أظلمت الدنيا في وجهه، وهو صابر على الأمر، فلم يطلق امرأته، ولم يتزوج عليها بأخرى، وكانت عطية التي وُلِدْتُ بعدها – كما كانت تحكي أمي – طفلة غير عادية الحجم والنمو، وربما كان ذلك بسبب أنها أُرضعت لبن حمار، فور ولادتها، بناء على وصية، امرأة غجرية ضاربة ودع، كانت قد تنبأت بمولدها والله أعلم.

ونشأت عطية، عفية معافاة، تسبق عمرها كثيراً، قيل إنها كانت تحمل خروفاً زنة عشرين رطلاً – دون أن تكل أو تمل – حمل الأم لرضيعها، وأذكر أنها عندما كنا نلعب ونحن صغار، «كلوا بامية» أو كيك على العالي'' كانت عطية تجري وتسبق الجميع، وتقفز على نحو لا يستطيعه من هم أكبر منها سناً، وقد قيل إنها كانت طفلة أكولاً، لا تكتفي بالرضاع، وقد دخلت ديوان النساء قبل الأوان، حتى أنها لما كانت في العاشرة، أصبحت تبدو وكأنها في الرابعة عشرة من العمر، وقد تربت عطية تربية بنات الملوك؛ فدللت وغنجت، وكانت لا تفارق أباها الذي هام بها، خصوصاً لصباحة وجهها، ورشاقة فرعها، ولما كان زمن هوجة سعد، صار يصطحبها معه، ويتركها تشق صفوف المشاركين في الاجتماعات، حتى تصل إلى منصّة الخطابة، فتقبّل الزعماء وتحييهم، ثم تغني، وكانت قد تعلمت في مدارس الإفرنج؛ مما جعلها تستطيع غناء أغنيات من نوع «أنا اجيبتي.. اجيبتي»، وغيرها؛ لأن هذه المؤتمرات، كان يحضرها أجانب أيضاً، مؤيدون للمسألة المصرية، وعندئذ، كان الدم يفور في العروق، ويلتهب حماس الناس، وهم يشاهدون صبيّة صغيرة تتغنى بحب الوطن وحريته، كما كانت تدور بالعرائض مع أبيها، للتوقيع على مطالب الأمة، أما ما أقوله عني، فعطية كانت الحب الذي تفتح عليه صباي وشبابي، والقلب الذي هز قلبي بعطفه وحنانه، لكنها لم تكن لي أبداً، فقد كنت صغيراً عنها، وسرعان ما زوّجها أبوها المرحوم لأبي أولادها، فَزُفَّتْ إليه زفافاً عامراً، ربما لم تشهده هذه المدينة من قبل ويكفي القول إن الأفراح ظلت أربعين يوماً دونما انقطاع، يذبح في كل ليلة من لياليها الشيء الفلاني من الخراف والبط والإوز والحمام، ويوزع على الرائح والغادي أصناف الحلوى من فالوذج وأرز باللبن، وأم علي، ولقمة القاضي، وأصابع زينب، وشراب الورد المحلّى بالسُّكّر، وكان ضمن جهازها مدق من الذهب وآخر من الفضة، ولم يدخل دولابها صنف قماش إلا الحرير الخالص، وكأن أباها لا يصدق أنه يشهد زواج ولد حيّ خرج من صلبه، فباع من أملاكه وهو الميسور الشيء الكثير لاجل هذا الزواج، فأنفق على الراقصات والطبالين والزمارين، وجالبي الورود والرياحين، بهذه المناسبة، ما يقارب ثمن بيت من أملاكه، وفي ليلة زفافها، دُقت الكؤوسات، وطِيف بها شوارع المدينة، وهي راكبة على فرس أشهب جميل والخدم بين يديها يقفون بالشاش والقماش، بينما يتقدم موكبها لاعبو النار والحواة وأصحاب الخيال والسماجات، على عادة أهل الزمن القديم، حتى دخلت بيت زوجها الذي خرجت منه يوم وفاتها. غير أن أبا عطية، سرعان ما مات بعد ذلك بقليل، وقبل أن ترزق عطية بابنها الأول، الذي مات بعد ذلك أيضاً، وقد قيل وقتها إن الرجل قُهَر، وطبَّ ساكتاً، عندما علم بخبر غرق أرضه التي كان يزرعها دخاناً، وذلك في زمن الفيضان، فقد كان يستأجر هذه الأرض وكانت جزيرة كبيرة في النيل من أم الملك، حيث كانت تدخل في زمام أملاكها، وعلى كل حال، فهو لم يترك لعطية بعد وفاته إلا الستر وراحة البال.



أحكي كل هذه الحكايات، ليعرف الجميع، أننا نعرف عن عطية أكثر مما قد يعرفه الأخ عن أخته؛ فقد تآخينا وتجاورنا في السكن لسنوات طويلة، حتى ظن الناس أننا أخوان خرجنا من رحم واحد، ويا ليتني لم أعش حتى اليوم الذي تموت فيه، وأمشي في جنازتها وأواريها التراب بيدي.

وما لا يعرفه الناس، وهذا سر أذيعه لأول مرة، أن عطية قبل وفاتها بوقت قصير، جاءت إلى جماعتنا، وكانت الأخيرة وقتها جالسة تنتظر سماع آذان العصر لتصلي، ونحن عادة نترك باب بيتنا مفتوحاً، طيلة النهار؛ لأن الداخل إليه لا يكون غريباً عنا، وجماعتنا حركتها ثقيلة بعض الشيء بسبب وجع المفاصل، وقد كانت عطية مضطربة جداً كما قالت المرأة – جماعتنا يعني – ولونها مخطوف، وترتجف، على رغم أن الدنيا صيف، والحرَّ كابس في كل ناحية، ثم إنها قالت لجماعتنا بعد أن هدأت قليلاً إنها كانت واقفة تسقي الريحان في جنينة بيتها، عندما لمحت في الشارع، سائلاً عجوزاً، ينادي على حسنة لله، فَلَفَّت من الجنينة للمطبخ، وحطّت لحماً على رغيف، وخرجت لتلحقه وتناوله رزقه، لكنها وجدته قد اختفى تماماً، من الشارع، كما لو كانت الأرض قد انشقت وبلعته، ثم إنها دوّرت عليه في كل ناحية، لكنها لم تجده أبداً، فتوجست، لأنها تهيأ لها أن الرجل، كان يلبس أبيض في أبيض، كما أن شارعنا سدّ، ومستحيل أن يكون مرّ منه لشارع آخر، كما أنه لم يكن من المعقول، أن يجتاز الشارع عائداً؛ لأن شارعنا طويل بعض الشيء، وفي هذه الحالة، كان لا بد أن تراه، حتى لو وصل نهاية الشارع، وبينما عطية وجماعتنا تتحدثان، أذّن المؤذّن لصالة العصر، فقالت عطية إنها ستذهب لتصلي فوراً، حتى لا يفسد وضوؤها، والدنيا شتاء، وقد كانت حسرة البول تمسكها كثيراً بسبب مرض السكّر، فذهبت على أن تعود بعد صلاة العصر؛ لتشرب القهوة مع الجماعة، وتتفرج على المسلسل بالتلفزيون، لكن السرّ الإلهي، كان قد طلع، وقد عرفنا ذلك، لما سمعنا سوسن ابنتها تصرخ وتقول: إلحقوني يا ناس وكنت وقتها على وشك أن أمدد جسمي على السرير، وأغطس في النوم، فجريت بسرعة حافياً، من شدة ربكتي، ورحت لبيتهم، وهو ملاصق لبيتنا تماماً، فوجدت المرحومة ساجدة على سجّادة الصلاة، وكانت قد سجدت وغابت في السجود، فلاحظت ذلك ابنتها التي كانت تجلس قريباً منها على الكنبة، فجرت تنادي على الناس. والحمد لله، موته ربنا ينوِّلها للجميع، فالساعة كانت ساعة عصر، ووجهها كان ناحية القبلة، ثم إنها كانت طاهرة بسبب الوضوء، ونيتها سليمة؛ لأنها كانت تنوي الصلاة.

ولما كان المنام الذي رأيتها فيه، تعاتبني بنظراتها دون أن تتكلم، وهي ترتدي ثوباً أبيض، وكانت تبدو فيه جميلة جداً، فأجري نحوها، أريد الكلام معها، فتدخل مسرعة من باب قديم مطرّز بنقوش عربيّة، فقد بدأت أنشغل بذلك وأفكر فيه، وكنت في البداية أفزع من نومي، وأقوم وأقرأ الفاتحة على روحها، وقد تكرر هذا الحلم ثلاث مرات، وفي المرة الأخيرة، التي رأيتها فيها، كان الباب الذي دخلت منه قد تجدد، وأصبح في لون أخضر بديع، ثم إنها دخلت وأغلقته، بعد أن لوّحت بيدها وتبسّمت، وفي صباح تلك الليلة تصادف أننا ذهبنا إلى الترب، فلاحظت بمجرد وصولي باب الحوش الذي دفنت فيه، وكان هو الباب نفسه الذي شاهدته في المنامات والنقوش فيه، وهي النقوش العربية نفسها التي لفتت نظري في الأحلام، فانتفض جسدي، ورجف قلبي رجفة خلت معها أن روحي لا بد طالعة مني، وشعرت كأني سأسقط على الأرض، حتى أن ابني لاحظ ذلك فسندني ظناً منه أنني تعثرت في حجر عتبة الحوش، لكني تماسكت وكتمت الأمر، حتى استشرت أولي الأمر، وبعض الصالحين، فقالوا جميعاً: وجب المقام.

وبهذه المناسبة أقول أنني لا أعرف شيئاً عن حكاية الزهرة الذهبية ولا أجد تفسيراً لها، وهذه أشياء لا يجب الخوض فيها، ولكن لكل وليّ كراماته، وإذا كان عهد النبوة والرسل قد انتهى، بانتهاء رسالة خاتم الأنبياء وسيد المرسلين، إلاّ أن أولياء الله كانوا وسيكونون في كل زمان ومكان؛ لأنهم من ملح الأرض، و«لله في خلقه شؤون»، وهو وحده العليم.

بقيت مسألة أخيرة، وهي أن الحفر مستحيل أن يحصل. أقول ذلك ولا أخشى شيئاً؛ لأن كلّ ما يقال عن وجود آثار من عدمه في القبر كلام فارغ، وهذا يستهدف تقليب الناس التي لا يمكن أن تسكت لو حصل الحفر. ثم لماذا الجري الآن وراء الأباطيل؟، وما جدوى الجري وراء هذه الأشياء؟، هل يريدون أن يعرفوا سرّ الكون، وكنه الحياة من خلال قبر عطية هانم؟. والله حرام، أقول حرام واتقوا الله في أفعالكم، كما ألفت نظر البعض إلى أن البعث بالمحرمات وعلى رأسها حرمة الموتى، لا بد أن ينقلب على أصحابه؛ فنابش القبر ملعون، ومقلق راحة الميت ملعون، وكفانا تشويشاً وبلبلةً.



الجارة تقول:

عطية هانم، جارتي وأختي وحبيبتي. لقد بكيت يوم وفاتها أكثر مما بكيت يوم وفاة أمي ذاتها، فهي المروءة والإنسانية والرحمة، كانت أفضالها على الجميع صغاراً وكباراً، لم تدخل بيتاً، أبداً، إلا وفي يدها ما يفرح العيّل، وعلى لسانها ما يطيّب خاطر الكبير، يذكرها القريب والبعيد بكل خير، أما عن علاقتي بها فأقول إننا سكنا في البيت المجاور لبيتها منذ ثلاثين سنة، وكنت وقتها عروساً جديدة، يمنعني زوجي من الأخذ والعطاء مع الجيران؛ لأننا غرباء ولا نعرف أحداً في هذا الحي، الذي سكناه بسبب قربه من شغل زوجي، وفي إحدى الليالي، وبينما هو غائب في وردية الليل، وأنا وحيدة بالبيت مع ابنتي الرضيعة كوثر، أخذت البنت تبكي بشدة وتصرخ، وكنت وقتها عيّلة، لا دراية لي بالخَلَفِ والعيال، فأخذتُ أعطي البنتَ الينسون والكراوية، ثم حاولت أن أنومها مرة على بطنها، ومرة على ظهرها، وهي تبكي وتصرخ الصرخة التي تجعل قلبي يتقطع، حتى أني تصوّرت أنها ستموت فعلاً، فأخذتُ أبكي وأنوح بعد أن أعيتني الحيل؛ لأن لبن صدري كان قليلاً ولا يكفي لشبع العيّلة، وبينما أنا في هذه الحال، إذ بباب البيت يدق فجأة، فشعرت بالخوف، ولم أرد، لكن ربنا ألهمني بعد قليل، فقمت وسألت عن الطارق في هذه الساعة الغريبة من الليل، فجاءني صوتها هي، عطية هانم، وكانت تستفسر عن سبب بكاء البنت، ففتحت لها وأدخلتها، وأنا أطلب من الله مسامحتي؛ لأني عصيت أمر زوجي، ولما عَرِفَتْ رحمها الله، أن حليبي شح، وأن الكمّون والينسون لم يشبعا العيّلة، أخذتها مني وأرضعتها، وكانت وقتها ترضع ابنتها سوسن، ومن هنا بدأت علاقتنا كجيران، والتي كانت في الحقيقة أكثر من علاقة جيران.

والمرحومة كانت أماً بالرضاع لعدد كبير من أبناء هذا الحيّ، منهم علي عباس المسؤول الكبير في الحكومة، الذي انتقل من حيّنا، طبعاً، بمجرد حصوله على منصبه المعروف، وهي بالنسبة إلى الرضاع، كانت غير طبيعية في هذا الجانب، فكانت تستطيع إرضاع طفلين إلى جانب طفلها الوليد، إرضاعاً مشبعاً حتى لحظة الفطام، وكان صدرها ضخماً بطريقة واضحة، على رغم أنها حتى وقت وفاتها لم تكن سمينة أبداً، وربما فسر ذلك كون الأطفال يرتاحون عليه، وينعسون بمجرد أن تحملهم عطية هانم وتأخذ في هدهدتهم، وكانت تقول عن حليبها الكثير إنه خير ونعمة رزقت بها، فلماذا لا تُنعم بها على من يحتاجونها، والطريف أنها كانت تشكو من آلام في ثدييها، إذا ظل بهما الحليب، لذلك كانت تدور على أهالي الحي وتسأل عن الوالدة منهم، لحظة ولادتها؛ لتطعم صغارهم بحليبها.

وبسبب حكاية الرضاع هذه، كانت لها دالة على العديد من ذوي المكانة والنفوذ في البلد، والذين أصلهم من هذا الحي، فكان يكفي أن ترسل صاحب الحاجة والطلب إلى المسؤول في مكتبه ليقول له: أمك عطية، تسلم عليك، وأنا قادم من ناحيتها؛ فيقوم الرجل بقضاء حاجته، وهو لا يملك إلا التنفيذ، والامتثال لطلبها؛ خوفاً من أن تلتقيه يوماً، وتعاتبه عتاب الأم لابنها، ثم إن بعضهم كان يقبِّل يدها أمام الناس ولا يخشى في ذلك لومة لائم، وقد شاهدت بنفسي، أحد الضباط الكبار بالجيش، ولا داعي لذكر اسمه، وكان يعيش في حيِّنا منذ سنوات، يقف أمام عطية هانم وقفة التلميذ الفاشل أمام مدرِّسه، بعد حرب سبع وستين، وهي الله يرحمها تُوَبِّخُهُ وتعاتبه وتقول له: والنبي حرام تروح البلد في شربة ماء بسببكم، الناس تقول خطوة لقدام، وأنتم خليتم عاليها واطيها، «خربتوها وقعدتم على تلها» تقول ذلك والدموع نازلة من عينيها، والرجل واقف قدامها مطأطئاً، ولم يفتح حنكه بكلمة واحدة.

وفي أيام حرب بور سعيد، وقفت عطية بجانب سرور اليهودي والذي يقع بيته في آخر الحي، وكان الشبان وقتها، ينوون قتله، وإشعال النار في دكان العطارة الذي يملكه، وقالت لهم: إن سروراً لم يفعل شيئاً، وما تفعلونه حرام. ولولا ذلك لكان سرور وأهله قد أصبحوا الآن في خبر كان، غير أنها لم تكن تحب سروراً وتقول: لا يمكن لمؤمن أن يأمن على نفسه من يهودي أبداً، كما كانت تقرف جداً من أكل أو شرب أي شيء عنده في البيت.

وأقول عن عطية (هانم)، لأن أباها كان حاصلاً على الأفندية بشكل رسمي من الحكومة، لذلك فاسمها في شهادة الميلاد عطية هانم، وكان أبوها ميسوراً، لكن عطية عاشت حياة أفقر الفقراء، فلم أرها يوماً ترتدي الذهب، على رغم كثرته لديها، وكانت توزع أثوابها الحريرية على بنات الحي وقت زواجهن، وقد باعت معظم ذهبها في مناسبات لا تتعلق بحاجتها إلى ذلك فقط، وسوف أحكي لك عن مسألة تتعلق بي شخصياً، فزوجي – رحمه الله – كان يحدث له عجز في الخزينة، بين وقت وثان؛ لأنه كان صرافاً بكوبانية النور والله أعلم بسبب حدوث ذلك العجز، لكنه والعياذ بالله لم يدخل منه قرش واحد لبيتنا، وفي مرة من المرات أصبح انكشاف أمره وشيكاً ونحن لا نملك حتى ما نبيعه لنغطي الفضيحة، الآتية في السكّة، والتي كانت لا بد أن تنتهي بفصل زوجي من شغله وسجنه، وهنا قصدت عطية هانم وأفضيت لها بسرّي وهمّي، فما كان منها إلا أن أعطتني من مصاغها زوج ثعابين. وحلّفتني أن أرجع لها فلوسها؛ لما تتيسر معي، وتفرج كربتنا، فقلت لها: زوج كثير، كفاية واحدة، وقد بعت الثعبان، لكن قضاء الله كان أسرع من أن نرد لها قيمته، فقد توفي زوجي بعد ذلك بشهور مستوراً، وأخذتني صعوبات الدنيا، والصرف على العيال، ولم يتيسر لي رد فلوس عطية هانم أبداً، حتى هذه اللحظة.



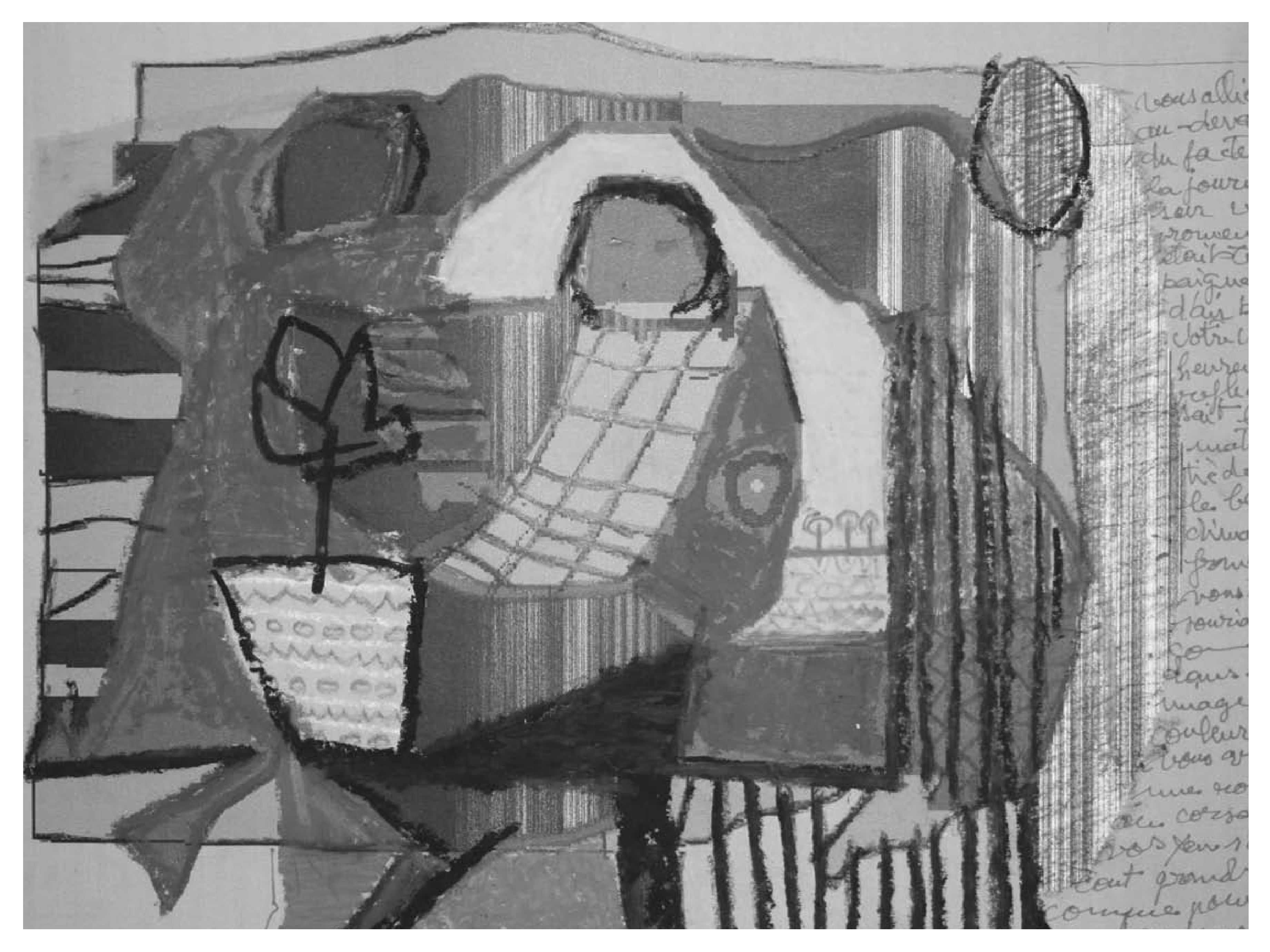
كل ما حدث لا أستطيع تفسيره، لكن الأولياء أصحاب كراماتٍ بلا شك، وربما كانت كراماتهم مستورة، وأنا أتذكر أن عطية هانم كانت في يديها بركة، فلما كان يتصادف أن تأتي إليّ وتساعدني في الخبيز، كان العجين يرمي من يدها كثيراً، وكلما كانت تمد يديها للماجور لتقرّص لي العجين أقراصاً، أقوم بفردها على المطرحة وأطوحها في الفرن، كان العجين لا ينتهي حتى أني أملّ وأزهق من قعدتي عند بيت النار؛ لأن العرق يجري مجاري في جسمي، وعندما تلاحظ هي ذلك تقول: الحمد لله، آخر قرص، ثم تخلِّص العجين عن كفها، وتعمل به عروسة تغرزها بقشة أو أي حاجة ثانية وتقول: في عين العدو، في عين من شاف وما صلى على جمال النبي، في عين الوسواس الخناس، ثم ترمي العروس في جوف النار.

حكاية الحفر، كثيرة قوي، وأنا أقول عيب، والله عيب أن يفكر الإنسان في حاجة لا تجوز أبداً، صحيح أن الأرواح تفارق الجسد بعد الموت، لكن للرميم حرمته، وكفاية، الكفر في كل ناحية بالبلد، والدنيا، التي قلت بركتها بسببه، يعني الرغيف صار بالشيء الفلاني.. الرغيف الحاف يا ناس.. ماذا نريد بعد ذلك؟.

نظرية الكبيرة

أمي لم تكن امرأة عادية أبداً، أقول ذلك لأني أعرفها مثلما لم يكن يعرفها أحد في الدنيا. لم تكن العلاقة بيننا، مجرد رابطة أم بابنتها، فقد كنا أقرب لأختين، وربما كان الشبه الشديد بيننا أحد أسباب ذلك، وربما تقارب عمرينا أيضاً، فأنا أصغر منها بخمس عشرة سنة لا غير، وكنت صديقتها الصدوقة التي تهيم بها حباً، وتقاسمها الفرح والهم، وتحفظ لها أدق أسرار حياتها دون حرج أو خوف، ولا أخفي سراً الآن، إذا قلت إن السبب في عدم زواجي حتى هذه اللحظة، كان موقف أمي، فعندما قررت أن أتزوج لا لشيء إلا لأتخلص من نظرات الناس إليّ كعانس، وذلك منذ حوالي عشر سنوات، حينما التقيت بأحد زملائي، وكان أرملَ ذا شخصية وقور آسرة، شعرت أن أمي تضايق لما فاتحتها في الأمر. أجل تضايقت لأني سأتزوج، لم تقل لي شيئاً يتعلق بالرجل، لكنها أقنعتني في النهاية بأنها سوف تكون الخطوة المجنونة التي ستجهز على مستقبلي، كباحثة في العلوم الطبيعية، تطمح في تحقيق شيء ما على صعيد العلم، وكانت هي التي دفعتني لترشيح نفسي قبل ذلك في الانتخابات مرتين، وأنا أظن أنها كانت امرأة سياسية، على رغم أنها لم تشتغل بالسياسة طيلة حياتها أبداً، اللهم إلا إذا اعتبرنا حضورها مرة أو مرتين، لمؤتمرات سياسية مع أبيها أيام زمان، عندما كانت طفلة عملاً سياسياً، وحتى بعد الزواج، عندما دفعها أبي إلى الاشتراك في جمعيات نسوية، تابعة للحزب الذي ينتمي إليه، ذهبت مرة واحدة فقط لاجتماع نسائي، عادت بعدها تستشيط غضباً من تصرفات النساء، اللواتي أخذت أمي تقلدهن في حركاتهن المفتعلة، وقالت لي فيما بعد إن ما استفزها بالأساس، أن رئيس الجمعية، وكانت سيدة مجتمع شهيرة، أخذت تغير من درجات صوتها وطريقة كلامها عندما جاء للاجتماع بعض الرجال، وإن المجتمعات أخذن يبتسمن دون مناسبة ويسوين شعورهن وهندامهن، وعادت وقتها لتقول لأبي، إنهن لسن أكثر من مجموعة نسوان لا شغل ولا مشغل لهن، وربما لهذا السبب أطلق عليها أبي منذ ذلك الوقت «الأستاذ عطية» وربما بسبب سلوكها بصفة عامة أيضاً، وخصوصاً فيما يتعلق بحياتها الخاصة معه، فعلى رغم أن أمي كانت تتمتع بوجه جميل، وقوام رائع، إلا أنها لم توجه أنوثتها أبداً تجاه رغبات أبي، حتى أنني عندما كبرت وصرت أفهم الأمور بعض الشيء، كنت أستغرب من أين تأتي أمي بأخواتي؟!، وأنا لا أذكر أنها نامت في سرير أبي ليلة واحدة، لكن على رغم ذلك، فقد كنت ألاحظ أن أبي كان يحبها، كما كانت هي تحبه وتحترمه، لكن كلاً منهما على طريقته الخاصة، فهي لم تعترض على نزواته القليلة التي شاهدت بعضها بأم عيني، عدة مرات في بيتنا مع نساء قريبات لنا، كما أنه فشل في أن يجعلها امرأة تحت طلبه، كمعظم زوجات عصرها. بل حتى عصرنا أيضاً، فقد كانت شخصية قوية قادرة على فرض نفسها ببساطة وسلاسة شديدة، وأنا ضد فكرة أخي عنها، والتي تقول بأن هناك خللاً في هورموناتها، فبساطتها وأسلوب تعاملها مع الناس، هو الذي خلق منها أشهر شخصية في الحي، يعرفها الصغير والكبير، الفقير والغني، المسلم والمسيحي وحتى اليهودي؛ وأنا أقول اليهودي، لأن أمي نجحت في إقامة صلات جيدة مع الأسرة اليهودية الوحيدة التي كانت تعيش بحينا، ولم تهاجر.

وكانت أمي تتبنى فلسفة بسيطة جداً في تعاملها مع الناس، ربما لم تدركها أبداً، وهي أنها كانت تعطي للناس الشيء نفسه الذي تريده منهم، وكانت البادئة بالعطاء دوماً، لكنها كانت تأخذ الكثير من الناس، دون أن تشعرهم بذلك، وبعد أن مات أبي وأصبح لا مورد لنا إلا معاشه الضئيل، نجحت أمي في الخروج بمركب أسرتنا الكبيرة إلى بر الأمان، لا بسبب تدبيرها شؤون البيت، وحسن تصريفها لذلك الدخل المحدود، ولكن بسبب فلسفتها المذكورة، فعندما دخلتُ الجامعة وكان التعليم وقتها باهظ التكلفة، كانت أمي تأتي بنفسها إلى مدير الكلية، وتقابله دون أن أدري، وتطلب منه إعفائي من المصروفات بعد مناقشة طويلة معه، يتخللها كثير من الأكاذيب من ناحيتها، والحقيقة أنها كانت راوية ممتعة لحكايات وحوادث لا تخلو من مبالغة، وأحياناً لم تحدث بالأصل، كأن تقول إنها من نسل ملوك مصر الفراعين الذين أسلموا سراً قبل دخول الإسلام مصر بسنوات بعيدة، كما كانت تقول إن لديها كتاباً بذلك، مكتوباً بلغة الفراعنة، وأنا لم أره بالطبع، وأذكر أنها قالت لرئيس المستخدمين بإحدى الشركات إن أختي «سوسن» هي ابنة بواب عمارة قريبة من بيتنا وإنها تعول إخوتها الصغار بعد أن دهست الرجل سيارة، فرقّ الرئيس لحالها وعيّنها فوراً، وغضبت سوسن، عندما عرفت الحكاية بعد ذلك من زملائها ورفضت الذهاب للعمل. والغريب أن أمي كانت تمارس الابتزاز النفسي أحياناً، فعن طريق علاقاتها الواسعة بالناس، كان يمكن أن تطلق إشاعة في الحي، عن فلان الثري الذي يقتسم مع زوجته بيضة واحدة على الإفطار كل صباح، وأنه يخزن الأموال في قدور السمن الفارغة، وأنه لا يستحم إلا مرة واحدة في العام، وبالطبع لم يكن الرجل بخيلاً إلى هذا الحد، لكنه لم يخرج الزكاة، أو كان يرفض التصدق ببعض ماله، وكثير من الناس كانوا يتقون لسان أمي، بأفعال تبرزهم على نحو طيب، وبصراحة كانت أمي جمعية خيرية متنقلة، فنظام يومها كان غريباً بعض الشيء، فهي تصحو مبكرة، وتضع لنا الفطور، وبمجرد أن يخرج أبي إلى العمل ونحن إلى المدارس، كانت تخرج. وهذا لا يتطلب منها أكثر من



ارتداء فستان أسود وحذاء بكعب منخفض، ثم تلفُّ شعرها بمنديل أسود، وما أن تصير على باب البيت، إلا ويبدأ نشاطها بتحية الجيران والسؤال عن أحوالهم، ويكفي أن تكون هناك امرأة في شُبَّاكٍ تنشر الغسيل، أو شاب خارج إلى عمله، حتى تبدأ أمي الحوار معه، وكانت من خلال ذلك تستطيع معرفة أخبار الحي كله، من خلال جولة صباحية قصيرة، تحتسي خلالها عدة فناجين من القهوة.

وكان هذا يعني أيضاً حل بعض المشاكل للناس. امرأة تريد بضعة جنيهات، تحضرها لها أمي – أثناء جولتها – من أخرى على سبيل السلف. فتاة في حاجة إلى فستان جميل، ترتديه عندما تدخل بصينية الشاي على عريس تقدم لها. وهذا الشيء كانت تفعله لأجلنا أيضاً، كما كانت تحصل على خدمات مشابهة باسمنا لحساب آخرين، وقد ساهمت أمي في إتمام زيجات كثيرة، وكذلك حالات طلاق؛ بسبب نقلها الأخبار وإطلاعها على حياة الناس اليومية، وعلى رغم ذلك فقد كانت محبوبة؛ لأن المحصلة النهائية لسلوكها كانت في صالحها، كانت تمتلك طاقة نفسية وجسدية هائلة، فهي تجهز طعاماً لأسرة كبيرة في وقت قصير جداً، تسهر حتى ساعة متأخرة من الليل، وعلى الرغم من ذلك تستيقظ مبكرة، لإعداد الفطور. ولم تكن تستغرب أحوال الناس أبداً مهما كانت، فهي رحيمة تنسى الإساءة وتغفر للناس إساءاتهم، وربما كان ذلك لأنها كانت تسيء إليهم أحياناً. أذكر أنها التقت في إحدى المرات بفتاة شابة، أفهمتها أنها فقيرة، وحيدة وبلا مأوى أو عائل، فخافت أمي على البنت من الانحراف، وجاءت بها لتبقى معنا في البيت، بعد أن أفهمت الجيران والناس، أنها ابنة والدنا من امرأة أخرى، اكتشفت أنه كان قد تزوجها قبل وفاته، وقد ظلت الفتاة معنا، تعاملها أمي مثلما تعاملنا تماماً، وترتدي ملابسنا، كما كانت تأخذ مصروفاً، وتساعد أمي في الأعمال المنزلية، بينما نقوم نحن بتعليمها القراءة والكتابة في الوقت الذي كنا نعاني فيه من ضائقة مالية حقيقية؛ بسبب أننا كنا آنذاك ما زلنا نتعلم، وبعد شهرين جمعت هذه الفتاة جميع ملابسنا وأشيائنا، بما في ذلك الملابس المنشورة على الحبال، وهربت، بينما كانت أمي تقوم بجولتها الصباحية، وتختلق تفاصيل جديدة عن قصة ابنة زوجها المسكينة، التي أصبحت يتيمة تماماً بعد وفاة أمها أيضاً، وبعد ذلك بسنوات التقتها أمي في الشارع صدفة فعاتبتها ووبختها، بعد أن أخذتها بالأحضان والقبلات، وظلت البنت تبكي وتقول إنها كانت في عصابة، وكانت العصابة تهددها بالقتل إذا لم تمتثل لأوامرها، وإنها أفهمتهم وقتها أنه لا يوجد شيء في منزلنا يستحق السرقة، لكنهم لم يصدقوها، كما أنها كانت تتمنى أن تبقى معنا؛ لأنها كانت تعشق أخي، وكانت تخطط للزواج منه.

وأنا أسوق هذه الحكاية لأبرز جانباً من شخصية أمي الغريبة، فقد كانت مغامرة محبة للحياة على نحو غريب، تدمن قزقزة اللب وقراءة الصحف والمجلات، وتتابع مباريات كرة القدم، وتحتفظ بكلب أو كلبين على الأقل في البيت، أما عن عدد القطط، فحدث ولا حرج، وكذلك، عصافير وسلاحف، وفي إحدى المرات ابتاعت نسناساً من قرداتي يطوف به للتسول، مقابل حلق من الذهب، لكنه هرب بعد ذلك، في ضوء خطة بينه وبين صاحبه فيما يبدو؛ لأنها رأت الرجل بصحبة قرده في مولد السيدة زينب، وقد صافحها القرد بعد أن تعرف عليها بنفسه، وتجاهل الرجل الموضوع. لقد اكتأبتُ عندما ذهبت إلى قبرها ووجدت المقام الذي أقاموه لها، فهذا كله كلام فارغ؛ لأن أمي امرأة أسيء فهمها، وحالت الظروف دون صيرورتها الطبيعية. فأنا أظن أنها أصيبت بصدمة نفسية من نوع خاص، منذ لحظة زواجها، فحياتها ونشأتها الأولى كانت تتنافى مع حياتها بعد الزواج، ومطالبه التقليدية؛ فقد تربت على الشجاعة والمواجهة، والتصرف الحر، وأبوها كان ينشئها كما لو كانت ولداً ذكراً؛ فكان يأخذها معه في مجالس الرجال، والاجتماعات العامة، ويقال إنها بدأت في تدخين النرجيلة منذ أن كانت في الثانية عشرة، وكنت أراها، تتبادل أنفاسها مع أبي ساعة العصارى بسعادة طاغية، منذ أن وعيت الحياة، وقد قالت لي مرة إن أول صدمة تلقتها في حياتها، يوم سألها أبي، بعد يومين من زفافهما، أن تقوم لتنام، وكانت وقتها تلعب الورق مع خادمة شابة، قدمها لها أبوها ضمن جهاز عرسها. إنني أسوق كل هذا لأبيّن أن أمي كانت إنسانة لديها إمكانات كبيرة... ولكن.

أم حسين. وليّه غلبانة

بكاها طوب الأرض لما ماتت، ويمكن، جنازتها كانت أكبر من جنازة الملك لما مات، كانت أميرة بنت أمراء، تمشورني هنا وهناك، وتحط الفلوس في يدي من وقت لوقت، ولا من شاف ولا من دري؛ لأنها كانت عارفة أني غلبانة، ولا حولي رجل أو عيل يجري عليّ ويرعاني، والشيخ سعد كان عزيزاً عليها، وكذلك الست نوسة زوجته، وكانوا مع بعض خوش بوش، وما تقوله الولية صاحبة العمارة عنها كذب في كذب، وبناتها أحسن البنات، والكبيرة تقدم لها خُطّاب من كل ناحية، لكنها فضلت ترفض، وأنا كنت عارفة، إن المرحومة كانت مخاوية جان؛ فهي كانت تربي قططاً كثيرة، وتكلمهم ويسمعون كلامها، ومرة شفتها بعيني، تضرب قطاً أسود كبيراً – كان عندها منذ مدة – على رأسه ضرباً خفيفاً؛ لأنه كان يمسك بين أسنانه عصفوراً صَادَهُ من الجنينة، ولما قالت له: اتركه وإلا والنبي أجيب أجلك، فكّه على طول، كما لو أن القط يفهم الكلمة، وطار العصفور، لكنها فضلت توضب القط بالكلام، وتقول له: خير ربنا كثير، والأكل مرمي تحت رجليك هنا وهنا، وعندك فيران في كل ناحية، يعني حَبَكْ العصفور؟ والقط بقي يتمسّح برجليها ويموء بصوت ضعيف، كله ذل ورجاء، كمن يتأسف على غلط صدر منه.

الشيخ سعد كان عارف كل شيء عنها، وأنا ذات نفسي صدَّقت لما قال كرامات؛ لأني شفت بعيني أفعالاً منها، كما قلت، ثم إنها توسطت لي عند المدام مديرة الملجأ؛ لأعيش فيه لأن رجلي صارت ثقيلة في الحركة حبتين، لكني وجدت عيشة الملجأ تزهّق، ومعاملتهم قاسية، فرجعت إليها مرة ثانية، وقلت لها أنا محتاجة لأن أكون هنا في الخارطة، لأني تعودت عليها، وعلى الناس فيها، فتوسّطت لي عند صاحب العمارة وأعطاني مكاناً تحت السلم لأبيت فيه كل ليلة، ولقمة من هنا، ولقمة من هنا الأمور ماشية، ثم إنها جعلت لي جُعلاً كل شهر، وكذلك جعلت أصحاب المعروف يفعلون فعلها والحمد لله.

يوم جنازتها كنت خفيفة، خفة الريشة، وفي رجلي كانت قوة ولا قوة بغل، حتى أنني وصلت مع الجنازة حتى الجامع، وأنا التي وقفت على غسلها، وكان جسمها نظيفاً كالفلّ، ووجهها طالع منه النور، وعلى شفتيها بسمة حلوة، ومن يراها كان يظن أنها نائمة، وغاطسة في حلم جميل، وأنا أخذت هدومها بركة، وطلبت من عيالها سلحفاة، كانت بالبيت عندهم، يمكن من حوالي ثلاثين سنة، وهي عندي حتى الآن.

الحكومة كل سنة والثانية تعمل هيصة، ولما كنت في البلد زمان، كانت تفضل تقول آثار، آثار، لكن الناس زمان كانت ناصحة، وكل نَفَر شاف حاجة هنا واللا، يكفي على الخبر ماجور، والتربي، يتقطع لسانه، يمكن هو المبلِّغ للحكومة، والحكومة لو أخذت الأرض، مفروض تبني عليها بيوتاً، ولا داعي لصرف الفلوس على الكلام الفارغ.

العاشق... المعشوق

عشقتها عشق البحر لمحاراته الدفينة، والطير لشعاع شمس شتوية لم تشرق بعد، كانت معي في كل لحظة من لحظات عمري. سبعون عاماً، يسري حبّها في دمي، رائحتها في فراشي عند المساء، صورتها في مرآتي كل صباح، حلم المنام الجميل، وحلم اليقظة الأليم، أحادثها دون أن تكون معي، أمزج ذاتها بذاتي فأخاصمها وأهجرها وأصالحها... وحيداً بيني وبين نفسي. وربما يعرف الآن الذين يتساءلون: لماذا لم أتزوج؟. إنني كنت أنتظرها انتظاري المستحيل، والزمن يزحف فيهزمنا ولا نهزمه. لم تكن على ديني، فكان مستحيلاً أن أكون زوجاً لها، لكنها كانت لي منذ أن كان الحب، ومنذ أن تعرفت علها مرة في بيت صديق لوالدها ووالدي، أصابتنا سهام العشق، ولم تزل ترميني بغياب الأمل في رؤيتها حتى الممات، عطية التفاحة، عطية الخميلة، هديل الحمامات في القلب، رقص الفراشات للنار، فلَّة دائمة على وسادتي، قطرة ندى صباحية على نافذتي، موج بحري في دمي، هي التي وهبتني وجه العاشق، وأنامل المشتاق، وروح الشعر السحرية، صاحبة النشيد المجنون، أغنيات السحاب والمطر.

أرجوكم... ارفعوا أيديكم عن حبيبتي واتركوها ترقد رقدتها الأخيرة بسلام، فما المجد الآن؟. أقبر وشاهد أم مقام؟. إن التراب يحضنها حضناً أزلياً يحسده القلب عليه، وفلّة وسادتي الحبيبة، تتوسد حصيّات الأرض الآن، فيا ريح اشهدي، ويا بحر فلتلطم أنواء الأرض بأمواجك عنيفاً.. عنيفاً، ويا نجمات المسافر، اسكبي دموعك ضياءً من نار، ولتغرب الشمس قبل أن تشرق؛ فحبيبتي صارت تتوسد حصيّات الأرض.

كانت عطية حقاً في زمن ندر فيه العطاء، كانت لا تبحث عن الحقيقة، لأنها، هي ذاتها. بالفطرة العبقرية عَرَفَتْ أن الخير خير، والحق حق، والجمال جمال.

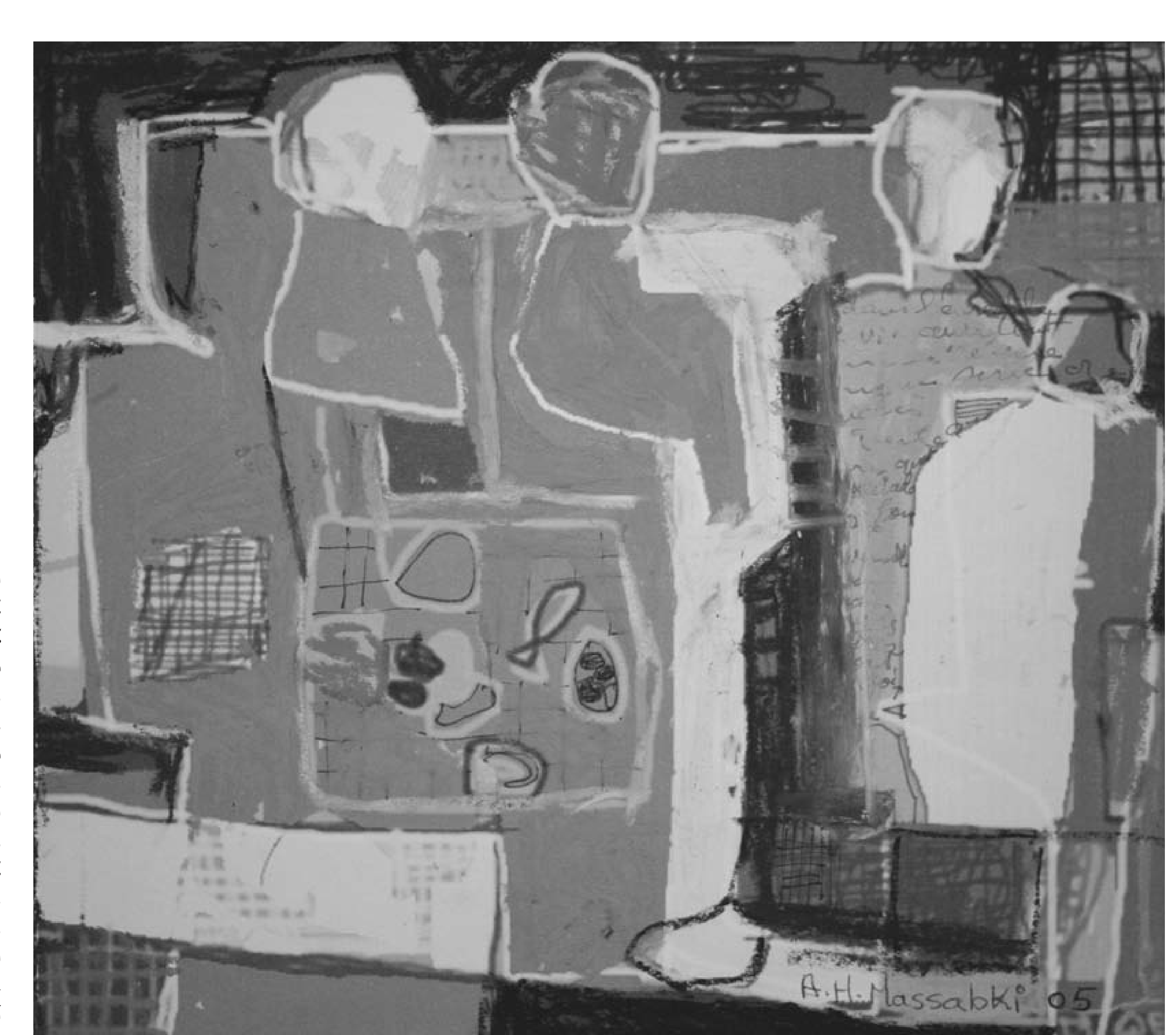
في المرة الوحيدة التي التقت شفتانا فيها بتلك القبلة القمرية النادرة، قالت لي، والنهر يسمع، والنسيم يخلط أنفاسها بأنفاسي اختلاط النور بالنار: أنت الإنسان الوحيد في العالم الذي أتمنى أن أجود له بروحي ونفسي، ولكن ليتني أستطيع.

لكنها استطاعت أن تكون بقربي دوماً، تمنحني لحظات الابتهاج بذكراها وهي غائبة. ولحظة أن طار طائرها عرفت قبل أن تأتي ابنتها إلى أختي العزيزة وتخبرها خبرها، فوقتها، كنت أسير في الطريق، وفجأة تمثلت صورتها أمام ناظري بوضوح، فاختلّت خطواتي، ووقعت دون سبب مقبول، فلا حجر أمامي، ولا ساتر يعوقني عن السير، فعرفت أنها لا بد أن تكون قد ذهبت في رحلتها الأخيرة، وعندما قمت من عثرتي، لأنظر في ساعتي، كان الوقت نفسه، الذي عرفت فيما بعد أنها ذهبت فيه.

أعرفها معرفتي لغاية الشجر من ثمراته، ولهجرة الطير لخلاصه، كانت حزينة إلى حد الفرح، فرحة إلى حد الموت، وكانت المواسية المؤاسية، الأسيانة، المفراجة، الطروب، تعشق عشق الناس لحيواتهم؛ هرباً من عشق ملائكي نادر، تحجبه أحوال الدنيا، وشروطها المشروطة، التي تفصل وتصل، وتقارب وتباعد، عاصفة بأحوال المحبة والهوى، وأقانيم العشق والغرام، وربما لا أذيع سراً، إذا قلت إن أشعاري وأناشيدي، كتبتها في رحاب عشقي المجيد لعطية، فأما عن نبش القبر بحثاً عن أثر أو خلافه، فأقول إن القبر رمز.. رمز لقلب عاش فأعطى فأخذ، فرقد، ولن أقول: حرام وحلال، فهذه بديهية لا داعي لقولها، لكني أتوجه بالحديث إلى أولي الأمر المسؤولين عن الآثار، فأسألهم: هل فتشوا في كل مكان من أرض مصر عن أمجاد الماضي، ولم يتبق لهم إلا موضع قبر عطية؟، وهل أنتم مبادرون إلى صون ما تم كشفه من آثار عظيمة بالفعل، ولم يبق لكم إلا البحث عن أثر جديد؟، وفرضاً أنكم وجدتم شيئاً جديداً في قبر المرحومة، فماذا أنتم فاعلون به؟، هل ستقدمونه هدايا – كما فعل البعض – لكل من هبّ ودبّ من أصدقائكم الأجانب؟، هل ستتركونه مُعَرَّضاً للسرقة والنهب، يعرض في متاحف الدنيا كلها، موزعاً على البلدان؟.

كل ما أقوله: اتّقوا الله في أحوالكم، واعلموا أن حيلكم مكشوفة، فما أنتم إلا راغبون في إزالة قبور هذه المنطقة لغرض في نفس يعقوب، تتكسبون من ورائه، وتعيثون به في الأرض فساداً.





طالب جامعي، ضمن من شالوا

خرجنا بالنعش من البيت، ومشينا به حتى الجامع لأداء صلاة الميت والمسافة كانت حوالي كيلومترين اثنين، الدنيا كانت شتاء، لكن الجو وقتها كان معقولاً، والشمس طالعة، وفجأة وبينما نحن سائرون، دون أية مقدمات، غيم الجو وهطل المطر، وساعتها بدأت حاجة غريبة تحصل، فالنعش بدأ يخف وزنه ويفلت من أيدينا، وينطلق بأقصى سرعة إلى الجامع، وبقينا نتشبث به ونحاول تثبيته ونحن نجري مع سرعته حتى لا يفلت منا ويقع في الوحل، وقد شعر بهذه المسألة نفسها كل الذين حملوه معي، وكانوا خمسة أشخاص غيري، وأنا كنت غير مصدق في البداية، وكنت أظن أنني أتخيل ما أقول، حتى حكى الحكاية، لبعضهم، بقية الستة، وهناك مسألة أخرى، وهي أننا سمعنا أثناء وضع النعش على الأرض في الجامع للصلاة طقطقة عظام غير عادية، وأنا أول ذلك الآن راجياً أن يصدقني أولئك الذين لا يعتقدون في مثل هذه الأمور؛ لأنني كنت مثلهم لا أظن أن حكايات من هذا النوع، لها وجود في الواقع، وقد استغرق التفكير في ذلك الحادث، وقتاً كبيراً مني، قبل الوصول إلى رأي محدد فيه، وأستطيع تفسير هذه الواقعة ومسائل أخرى عديدة، وفقاً لمعطيات التاريخ المصري القديم، فإلهة العدل ماعت، تقوم بوضع قلب المتوفي في ميزان، وتزنه، حتى يتقرر، فإذا كان القلب ثقيلاً، لكثرة ما يحمله من خطايا وذنوب، ذهب إلى النار، وإذا كان خفيفاً نقياً، كانت الجنة من نصيب صاحبه، ومن هنا يمكن تصور أن النعش أخذ في الطيران، ربما لحظة اكتشاف حقيقة قلب صاحبه، وإتخاذ القرار الإلهي بشأن ذهابه إلى الجنة، وكل المقدمات تؤدي إلى هذه النتيجة، فالست عطية، كانت مشهورة بالكرم، مجبولة على فعل الخير، وأياديها البيضاء، على جميع أهل الحي، أكثر من أن تعد أو تحصى. وقد كانت حلوة اللسان، طيبة السلوك والكلام؛ مما يجعل كفّتها في الآخرة ترجح في اتجاه دخول الجنة، وربما كانت لها تجليات وكرامات مستورة في الدنيا، كما يقول المتصوفة.

لقد شغلني موضوع الست عطية كثيراً كما قلت، وبالبحث في ملابسات القصص والحوادث كافة، توصلت إلى نتيجة بالغة الأهمية، وهي أن الست عطية، كانت تنتمي إلى سلالة أخناتون العظيم دون أن تدري، وكانت تحمل روح التعاليم الأخناتونية العريقة في اللاشعور. فبالبحث، اكتشفت، أنها كانت تنتمي إلى المنطقة نفسها التي نمت وترعرعت فيها الأخناتونية، وهي المنطقة التي انبعثت منها كل فكرة، تدعو إلى التفاني في حب الخالق الواحد، أصل الوجود، لقد حاولت تتبع مسار التعاليم الأخناتونية تاريخياً، ووصل الخيوط التي انقطعت عبر ذلك المسار، والتي يمكن أن تدلنا على ما وصلت إليه هذه التعاليم من حال، فليس من المقبول عقلاً ومنطقاً، أن تسطق هذه التعاليم الراقية في ذاك الزمان القديم، فجأة، لمجرد أسباب سياسية مستحدثة، إنني لمستطيع القول، إن الأخناتونية، ظلت تمارس تأثيرها إلى وقتنا هذا، بعد أن تسربت في مسارب عديدة، ولعل أبرز تجليات هذا التأثير، هو ما يثار الآن عن موضوع الست عطية، ففكرة التصوف، هي فكرة أخناتونية الأصل، تتلخص فث الانقطاع عن العالم والتعبد والتهدج؛ حتى يتحد المحبوب بمن يحب. وهنا أحب أن ألفت النظر إلى ما ورد في كتابات مؤرخي العصر الوسيط عن الأخناتونية، فالملك سوريد، بلغة هؤلاء المؤرخين، والذي هو أخناتون، كان يعبر النيل تاركاً عاصمته هو وبناته الثلاث، عبر نفق سري في الماء، متجهاً إلى الضفة الأخرى من النهر، حيث الصحراء الشاسعة الممتدة، والشمس الذهبية الآسرة، لممارسة عملية الانقطاع التي أشرت إليها، وهو الأسلوب نفسه، الذي اتبعه بعد ذلك الأنبا باخو، مؤسس الديرانية في مصر والعالم بأسره، ثم هناك أيضاً المتصوف المصري الشهير النفَّرى، الذي اتّبع الأسلوب نفسه، وأنا أظن أنه القديس أبا نفر الراهب الديراني أيضاً، وخصوصاً أن شخصية النفري، يكتنفها الكثير من الغموض، وكذلك منشأه، وكيفية حياته، وإن كانت مسألة انقطاعه للعبادة في الصحراء، مقطوعاً بصحتها تماماً، والملاحظ أن المتصوفة الإسلاميين جاء معظمهم من مصر العليا، بل إن بعضهم كان ملماً باللغة المصرية القديمة، فذو النون المصري، وهو أسواني المنشأ، يُروى عنه وفقاً لكتابات مؤرخي العصر الوسيط، أنه كان يقرأ ما كتب على البرابى المنتشرة بضفاف النيل، والمقصود بذلك الآثار الفرعونية العديدة الموجودة في الصعيد، ثم إن هناك تشابهاً كبيراً بين مقولات النفَّرى، ومقولات أخناتون، وربما كان ذلك موضوع بحث طويل، لكنني أوردت كل هذا الكلام في محاولة للوصول إلى جانب من الحقيقة في موضوع الست عطية، فأنا لا أؤيد ما حدث، على طريقة العامة، كما أنني لا أرفضه رفضاً قاطعاً تحت دعوى العلم والمادية، وأنا أطالب أن يسارع الجميع بعملية الحفر، ولا داعي لعرقلة الأمور، خصوصاً بعد الذي شاهده ابنها والتربي، فهذه الحكاية مؤشر خطير على علاقة التي ذكرتها بين الأخناتونية والست عطية، وأعتقد أن الأوان قد آن؛ لكي نتعامل مع كل ما هو غيبي على نحو علمي مدروس، ولنفسح المجال قليلاً؛ لتتحدث حقائق التاريخ، وأخيراً أحب أن أقول لأولئك الذين يخشون على مقام الست عطية، إن عمليات الحفر والتنقيب، ربما قطعت الشك باليقين، وزادت مقام الست عطية قدراً ورفعة، بل عادت على الجميع بالنفع والخير.

زوجة صاحب العمارة بالحيّ... وعمارات أخرى

على رغم أن ما سأقوله، لا يصح قوله على إنسان توفى؛ لأن الموتى لا تجوز عليهم إلاّ الرحمة، إلاّ أن كلامي لا بد منه؛ لأنه شهادة، فيجب أن أكون أمينة فيها، فرأيي أن عطية لم تكن امرأة محترمة أبداً، فسلوكها كان سوقياً وبلدياً جداً، كانت تصاحب من هبّ ودبّ، وتدخل بيتها الصعاليك والشراشيح، وتسامرهم وتجاريهم في الكلام، ولم تكن ربة بيت بأي حال من الأحوال، فهي تطبخ طبيخاً لا يمكن أن يأكله ابن آدم، ولا حتى الحيوان، وبيتها كان وسخاً دائماً، من كثرة دخول وخروج الناس منه، ولا أظن أنها مشطت شعرها أبداً، وكانت ترتدي الأسود، وتضع على رأسها منديلاً أسود، لا من باب الحشمة والوقار، ولا الحزن على زوجها كما كانت تدّعي، لكن لأن الأسود لون لا تظهر عليه الوساخة، ولا يمكن تمييز تفصيلته، فكل الهدوم السوداء تتشابه، وقد قطعت علاقتي بها تماماً – على رغم أني كنت حريصة جداً معها أثناء اتصال هذه العلاقة، منذ أن حاولت إبنتها الوسطى إغواء ابني الضابط، فبناتها مثلها يجدن الكلام الحلو والابتسام فيقع الشبّان في حبال شباكهن، لكن أمرهن سرعان ما ينكشف، فهن – في الأغلب – على صورة أمّهنّ، متلافات مثلها، لا يخجلن من فقر أو شحاذة، فابنتها الكبرى على سبيل المثال، ذهبت إلى الجامعة في معظم الأيام بهدوم ابنتي التي كانت تناهزها العمر، والغريب أن عطية لم تكن في الأصل فقيرة، لكنها كانت مبددة متلافة، فعند زواجها كانت تمتلك أربعاً وعشرين مرتبة سرير، وعشرين لحافاً من القطن، وكان ثمنهم يساوي الشيء الفلاني – حتى في أيام الرخص. ومع ذلك لا يوجد لحاف واحد منهم في بيتها الآن؛ لأنها كانت تسلّف الناس كل شيء من بيتها حتى مراتب السرير، وكانت لما ينزل على جارتها ضيوف من البلد، تعطيها مراتب وملاحف، وحتى أطباق الصيني والشوك والسكاكين، وطبعاً كان مستحيلاً أن أقبل زواج ابني، من بنت لها؛ فهن يستقبلن الشبان في البيت، ويتحدثن إليهم، بل كن يذهبن معهم – في بعض الأحيان – إلى السينما، وهل هذا شيء يمكن قبوله، وهل يتصوره أحد؟!، وابنتها الكبرى كانت تذهب في رحلات مع الجامعة، وتغيب فيها أسبوعاً وأسبوعين، والله يعلم أين كانت فعلاً؟. أما عطية نفسها، فسلوكها لا بد أن يكون مستقيماً، فهي امرأة لا تحسب في النساء بالأصل، حتى ينظر إليها الرجال، وزوجها نفسه كان يتهكم عليها بذلك أمامنا، وأمام الناس كلهم، أما كون زوجي كان يهزر معها، بعض الأحيان، ويدعوها لفنجان قهوة؛ فذلك لا يعني أي شيء، فزوجي، رجل يفهم الدنيا كما يجب، وكان يفعل ذلك معها لأنها عارفة أخبار الحيّ كله، والأخبار عندها أولاً بأول دائماً، وطبعاً كان يسلّفها؛ من وقت لوقت؛ لأنه كان يعذرها ويقول: غلبانة وحملها ثقيل.

حكاية المقام كلام فارغ طبعاً، ويقف وراءها جارها الشيخ سعد؛ فهو رجل مهووس ومريب أيضاً، وهو يستغل تأثيره على الناس كخطيب في جامع المنطقة، وبصراحة أقول إنه لا بدّ من وجود مستفيدين من وراء ذلك الموضوع، وهذه أشياء تحدث وتكثر في البلد الآن، ومنذ فترة قريبة، وأبسط شيء يمكن قوله إنها لم تكن محجّبة بالمعنى الصحيح للتحجّب، وكذا بناتها أبعد ما يكنّ عنه، ثم هل من المعقول أن تظهر الكرامات فجأة؟.. والله أنا مستغربة من ذلك ومستغربة أكثر من اهتمام الصحافة بأشياء من هذا النوع. لذلك ألفت نظركم إلى ما يحدث في البلد الآن، وفجور السكان، واستهتارهم بأصحاب العمارات، وأتمنى أن تكتب الصحف عن ذلك، فحتى فلوس المياه يرفضون دفعها، ناهيك عن أن الإيجارات ذاتها منخفضة، وبهذه المناسبة أذكر أن عطية أرسلت في إحدى المرات خطاب شكر باسم سكان الحي لرئيس جمهورية راحل، كان قد خفّض الإيجارات منذ سنوات بعيدة.. عموماً وراء كل سلوك مصلحة، ولتفتش الحكومة عن أصحاب المصلحة في موضوع عطية، وقصدي واضح من هذا الكلام، ولا يخفى عن الذين يفهمون هذه الأمور أكثر مني.



عواد الصامت

رفض عواد التربي – كما ذكرت الصباح من قبل الإدلاء بأية معلومات للمجلة، وهو التربي المنوط برعاية مقام الست عطية وخدمته، كما أن حوش القرافة، الذي يوجب به المقام، ضمن منطقة نفوذه، لكن الصباح استطاعت الحصول على معلومات تتعلق بعواد التربي، ربما تلقي هذه المعلومات بعض الضوء على شخصية عواد ونشاطه في المنطقة.

يقول م.ع. قارئ قرآن على القبور بالقرافة: «عواد هو المستفيد الأول من الذي حدث الآن؛ لأنه الوحيد الذي يمكن أن يعرف، متى، ولماذا، وكيف نبش القبر؟. ورأيي أن القصة كلها من تأليفه، أما الخبر الذي أحب أو أوصله للحكومة والمسؤولين، فهو أن عواد يبيع الجثث لطلبة الطب، وهذا أمر لا يمكن السكوت عليه، وأنا عندي معلومات كاملة عن الموضوع، وتفاصيل الأسعار، وكلام كثير آخر سوف يفيد الحكومة جداً».

س.ف. تربي بالقرافة: «عواد أصله حرامي وتاب، جاء إلى هذه المنطقة من زمن بعيد؛ لأن الحكومة كانت تسعى في طلبه ثم رسا المقام به في القرافة وعمل في الترب، وهو عارف الترب، طوبة طوبة، وحجر حجر، ولو كان فيها كنز لكان سرقه من زمان واغتنى وفارق الترب، وعيشتها الغم، ورأيي أنه ليس صاحب مصلحة في الحكاية كلها من أولها إلى آخرها، وبالنسبة إلى مقام الست عطية فهو جديد، ولا أحد يعرفه جيداً، يعني المورد منه محدود، ثم إنه لو كان سرق أي شيء من القبر، يعني الذهب أو خلافه. كان لا بد أن يردم القبر مرة ثانية حتى لا ينكشف أمره، وهو نفسه، ليلة الحادث، كان متحيراً جداً، مضطرباً، وقد جاءني إلى البيت، وحكى لي الحكاية، وطبعاً هو رفض الكلام عن أي شيء؛ لأن هذه الأمور حساسة من نواحٍ كثيرة ولا يصح الأخذ والعطاء فيها».

الأثري علي فهيم

سأتحدث، على رغم اقتناعي، بعدم جدوى هذا الحديث، فأنا أشك أن كلامي سينشر بالأصل، فهو أولاً وأخيراً، كلام غير صالح للنشر في مجلة كمجلة الصباح، وربما غير صالح للنشر في أية مطبوعة أخرى تصدر وتوزع على الملأ – خلال هذه الفترة – فكل ما يقال عن حرية الصحافة وحرية التعبير أكذوبة كبرى لم أصدقها، ولن أصدقها ما حييت، لكني على أية حال سأعتبر أني أحادث نفسي كما جرت العادة، الفرق أني سأحادثها هنا بصوت عال بعض الشيء، وربما كان ذلك محاولة بسيطة، للإفلات من الجنون، الذي أشعر أنه يقترب مني بسرعة مخيفة؛ فأنا لم أعد قادراً على احتمال المزيد من الكذب والزيف، الذي بات يشمل كل شيء، ويغلف كل شيء في حياتنا من أخمص القدم، حتى قمة الرأس.

لقد سوّيت معاشي من الآثار، على رغم وجود سنوات طويلة ما زالت، تسمح لي بالاستمرار في العمل، من الناحية القانونية، وحرصت على الانسحاب الهادئ؛ عندما شعرت أن الأمور قد فاقت كل حد، فلم يعد بمقدوري الاحتمال، أو القيام بأي دور معاكس، لما يحدث من تخريب متعمد ومقصود، والمسألة تخطت حدود الإهمال والجهل واللامبالاة، بتراثنا الأثري العظيم، بل أصبحت تمس ما هو أبعد من ذلك وأخطر، على ماضينا، وحاضرنا، ومستقبلنا، ووعي الأجيال المقبلة بذلك. وقبل أن أتناول موضوع مقام الست عطية، أحب الحديث عن حقيقة عامة أشعر بها، وهي أن بلدنا بلد منكوب على مرّ العصور، هو أشبه بالمرأة الجميلة التي جنى عليها جمالها؛ بسبب مطامع الآخرين فيها، فلقد كانت خصائص هذا البلد، نقمة على أهله طوال التاريخ، ما الذي جنيناه من بناء الأهرام، غير الموت والشقاء؟، أي مجد نلناه من وراء تلك الصروح الحجرية الضخمة، التي بنيناها بالدم والدموع؟، ثم ما الذي حصلنا عليه بعد حفر قناة السويس؟، كم قناة من الدم، امتلأت بعرق الآلاف من أبناء هذا الوطن، حتى تعبر فيها سفن الإنجليز والفرنسيين، ثم الأمريكان بعد ذلك؟!. فما من مأثرة لدينا، إلا وهي نقمة علينا، حتى النيل هو لعنة أبدية صُبت علينا، إنها دراما.. بالأحرى تراجيديا تاريخية، كُتِبَ على أبطالها – من أبناء هذا البلد – تجرُّع المأساة إلى الأبد.

أقول ذلك للولوج من خلاله، في موضوع مقام الست عطية، فمن المعروف أن منطقة المقام، هي من أغنى المناطق الأثرية في البلاد، والأثريون والمؤرخون يدركون تماماً، مدى أهمية ومكانة هذه المنطقة من الناحية الأثرية، كما يعرفون سلفاً، أهمية النتائج التي يمكن أن تتمخض عنها الحفائر هنا، ولن أذيع سراً، إذا ما قلت، إن النتائج سوف تفوق أهميتها، أهمية الأهرامات الثلاثة مجتمعة، ومنطقة معبد الكرنك، ووادي الملوك، وكنز الملك توت عنخ آخون أيضاً. فالنتائج ستكون دليلاً قاطعاً على ما أحرزته الحضارة المصرية القديمة من تقدم مبهر ورقي لا نظير له.

الجديد، هو أن الكشف سوف يكون ذا طابع تكنولوجي بالأساس، وعلى رغم ذلك، فإن أهميته الرئيسة تكمن في كونه يلقي الضوء الساطع على شخصية المصريين القدماء؛ مما سيقدم مادة جديدة تماماً لعلماء السوسيولوجي، وكذلك متخصصي الأنثربولوجي.. ولا أغالي، إذا ما قلت إن هذا الكشف، ربما فاق من حيث الأهمية، اكتشاف القنبلة الذرية، أو عملية الصعود إلى الفضاء.

إن ما دفعني إلى الكلام، لا يتعلق بما أوردته آنفاً، لكني أريد الحديث عن عملية الكشف ذاتها، كيف؟. ولماذا؟. ومن الذي سيقوم بها؟. فبدون إجابة محددة دقيقة، عن هذه الأسئلة، ربما نقع في مصيبة جديدة، كارثة قومية أخرى، تضاف إلى سلسلة الكوارث التي منينا بها طوال تاريخنا القومي، فأنا أرجو وأتمنى ألا نقوم بهذا الكشف الآن، على رغم كل ما قلته عن أهميته، أعني لا نقوم به ونحن على هذه الحال المتدهورة التي نعيشها. نأكل لقمة الخبز بالدين، ولا نحسب لغدنا قبل يومنا، ونعيش شريعة الغاب؛ حيث يأكل الكبير الصغير، والقوي الضعيف، باختصار فإن هذا الكشف سوف يكون كارثة، ما دام التشوه الغريب ما زال يعمل في ملامحنا، ولننظر ماذا نلبس؟، كيف نأكل؟، أين نسكن؟، كيف نحب ونتزوج وننجب؟. إننا محاصرون تماماً بكل عوامل التشوّه التي تُفرض علينا فرضاً، ونستجيب لها راضخين، يوماً بعد آخر، دون أن نقاوم؛ لأن العدو يأتينا هذه المرة، بألف وجه ومن ألف باب وشباك. لماذا نرتدي الألياف الصناعية في هذا الجو الخانق، ونحن نزرع القطن والكتان؟، ولماذا نعيش في هذه المباني الكئيبة الشبيهة بصناديق الصابون، أو الأحذية، وأمامنا الصحراء الفسيحة؟. لن أعدّد العشرات من تفاصيل التشوّه، التي تسيطر على كل لحظة من لحظات حياتنا، لكني أقول، إن الكشف عن أي شيء في مقام الست عطية سوف يكون مصيبة ونحن على هذه الحال، فعملية بهذه الخطورة والأهمية، لا يمكن أن تتم إلا بجهود جبارة وطاقات مادية وبشرية غير عادية، فهو يقع على مساحة واسعة جداً من الأرض، تستدعي إزالة القرافة الكبرى، بكاملها ومناطق مجاورة لها، لا تقل عنها قبحاً وكآبة.

إن التلمظ على مقدرات هذا البلد، سوف يزداد على نحو لا يمكن تخيله، إذا جرى الحفر الآن، وخصوصاً أن ذلك سيستدعي تدخل أطراف أجنبية في عملية البحث والكشف – ولا أبالغ إذا ما قلت – ربما تنشب بسببه حلقة جديدة، من حلقات الحروب الاستعمارية الكلاسيكية المعروفة منذ مطلع القرن الماضي.

وبمنتهى الثقة والصدق، أقول للجميع، إن الكشف عمّا وراء مقام عطية، يستدعي طاقات روحية خلاقة، طاقات كل أبناء هذا البلد بالأساس، إن ذلك يعني حقاً تغيير كل ما هو قائم وتنظيم الناس وحشدهم بدقة متناهية، حول هدف عظيم يشعرون من خلاله بالانتماء الحقيقي لهذا البلد.

أخيراً، أريد أن ألفت النظر، إلى أن وجود مقام الست عطية في هذا المكان، ليس من قبيل المصادفة، فأنا لا أومن بقانون الصدفة كثيراً، وليحاول الجميع البحث عن حقيقة الأمر، في هذا الاتجاه.

إلى من يهمه الأمر



على رغم تكتم الجهات المختصة، والصحافة، على موضوع مقام الست عطية، لملابسات عديدة لم تُعرف على وجه الدّقة، وعلى رغم عدول مجلة الصباح عن قرارها بإجراء تحقيق واسع حول ذلك الموضوع، إلا أن السيف سبق العذل، كما يقول المثل الشهير، فلا أمر يُخفى إلا يشع وينتشر فموضوع مقام الست عطية، أصبح حديث الناس في الداخل، حتى أن بعض منتهزي الفرص من مؤلفي الأغاني الهابطة، التي تروج خلال هذه الأيام، قام بكتابة أغنية من ذلك النوع تقول كلماتها: «يا عطية وخبريني، عن أحوال الجميع»، ويمكن الاستماع إلى هذه الأغنية بسهولة: إذا ما استقل المرء أية سيارة أجرة، تنتقل بين القاهرة والأقاليم.

أما مجموعة الكتاب والصحفيين، المتعيّشين من الكتابة في صحف ومجلات البترودولار، فقد كان موضوع مقام الست عطية، بمثابة ثروة هابطة عليهم من السماء، خصوصاً بسبب حالة القحط التي أصابتهم، والناتجة عن غياب حوادث مثيرة، داخل البلاد يكتبون عنها، ومن ثم، فقد راحوا يتناولون موضوع الست عطية بالطول وبالعرض، وكان أطرفهم صحفي، يكتب حسب الطلب، متخصص في الكتابة لصحف ومجلات أنظمةٍ عربيةٍ متنافرة الاتجاهات السياسية، كتب مرة محاولاً إثبات، أن محاولة إثارة موضوع مقام الست عطية، خلال هذه الآونة؛ يستهدف بالأساس، غض الأبصار عن حرب الخليج، ومن ناحية أخرى، كتب في مجلة ثانية يقول، إن ذلك الموضوع محك عملي، يجب أن تحتشد في ضوئه قوى الصمود والتصدي في المنطقة.

أما في الخارج، فقد قدم مراسل جريدة إنجليزية، مهتمة بنشر أخبار البلدان المتخلفة، تقريراً مفصلاً عن موضوع الست عطية، حض فيه حكومته على نحو غير مباشر، بأن تسارع، وتضع يدها على الموضوع، قبل أن تسبقها حكومات بلدان غربية أخرى، ولا تملك بعد ذلك إلا عضّ أصابع الندم، من ناحية أخرى، فقد نشرت مجلة غربية فضحائية شهيرة، صوراً فاضحة، لمندوب منظمة ثقافية دولية يعمل في القاهرة، وهو في أوضاع شاذة مع تربي مقام الست عطية، واكتفت بالكتابة تحت الصور «بدون تعليق».

ويقال إن هذا المندوب، رفع فوراً قضية على المجلة، مطالباً بتعويض قدره، عدة ملايين من الدولارات.

لكن ما يجب ذكره على نحو أساسي، هو أن كل ما أوردناه وقدمناه، لم يكن لنا أن نعرفه، لولا المحررة عزة يوسف، والتي كانت قد قامت بجمع المادة الأساسية المتعلقة بالتحقيق الصحفي الذي لم ينشر، وخلال ذلك عقد قرآنها فجأة على الأثري علي فهيم، ثم إنها قدمت استقالتها من المجلة بشكل نهائي، وبعد ذلك بفترة قصيرة، غادر علي فهيم الحياة، بعد أن دهمته سيارة مجهولة، وهو في طريق عودته إلى منزله ليلاً، وقد قيل وقتها، إنه كان يشكو إلى المقربين من أصدقائه من إحساسه الدائم بأنه مراقب من قبل أشخاص مجهولين وإنه يستشعر بأنه سوف يُقتل.

قبل ذلك بفترة أيضاً، كانت شقّة العروسين، قد تعرضت لحادث غريب؛ حيث داهم مجهولون الشقة، وأتلفوا محتوياتها، بعد أن نقّبوا فيها، واكتفوا بسرقة بعض الأوراق الخاصة بالزوجين، وبعض الكتب، ولما أبلغ علي فهيم الشرطة، أسفر البحث والتحرّي عن لا شيء، وقيّد الحادث ضد مجهول.

ويبدو أن هذين الحادثين الغريبين، قد جعلا عزة يوسف تضع النقاط فوق الحروف، بالنسبة إلى مجموعة من الحقائق، كانت تعرفها هي وزوجها، ولسبب ما، أحجما عن إذاعة هذه الحقائق، أو ربما مُنِعا على نحو من الأنحاء من إذاعتها، لذلك قررت أمراً غريباً، قبل اختفائها من منزلها على نحو غامض، وفقاً لما قالته الصحف بعد ذلك.

فالحقيقة هي أن كل ما سجلناه على الصفحات السابقة، لم يكن إلا ما وجدناه صباح أحد الأيام، تحت باب شقتنا في مظروف متوسط الحجم، يحتوي على ما كتبته عزة يوسف، دون زيادة أو نقصان، تحت عنوان «إلى من يهمه الأمر»، ومذيّلاً بإمضائها دون تاريخ، ثم أسفل الصفحة «عزة يوسف قد تموت، لكن الحقيقة تبقى».

المظروف متوسط الحجم الذي عثرنا عليه، هو نفسه، المظروف الذي عثر عليه عدد آخر من الناس أسفل أبواب منازلهم، وكان يحتوي على المادة نفسها، ومعنوناً في جميع الأحوال: «إلى من يهمه الأمر».

A.H. Massabki
05



كل ذلك الصوت الجميل الذي يأتي من داخلها

- 1 -

بدا كل شيء طبيعياً، وفقاً لطقوس اليوم المعتادة. الحجرات مرتّبة ونظيفة، الأطباق على المائدة تنتظر الطعام، بينما صوت المذياع الخفيض يثرثر بأنباء ما بعد الظهيرة، التي لا تتغير عادة، لكن عبد الحميد شعر أن ثمّة قلقاً يهيمن على زوجته، ويجعلها تدسّ رأسها بين كتفيها، أكثر من المعتاد، وهي تزدرد الطعام، ولا تجاريه في الكلام، كما يجب، فسألها:

– مالك يا سيّدة؟!

– أبداً.

ردّت بوجوم، وذهبت إلى المطبخ متذرّعة بأنّ الشاي فار من الإبريق على النار، لكنّها لما عادت بدت أشدّ اضطراباً، حيث وقع غطاء الإبريق على الأرض، بينما كانت تهمّ بصبّ الشاي في الأكواب. عاود عبد الحميد سؤالها عمّا بها بلهجة مستنكرة، فهمست له بحياء، أنها تريد أن تفاتحه في موضوع، لكنها خجلة.

«خير؟!» قال، ثم أشعل سيجارة مخمناً الخبر، ستطلب فلوساً طبعاً، وتتذرع بأمر طارئ، أو ستحاول إقناعه بزيادة المصروف الشهري، فليس من موضوعات أخرى خاصّة، يمكن أن تخجل سيّدة من طلبها غير هذه!؟. كشّر عن أنيابه، عاقداً ما بين حاجبيه، محركاً رقبته يساراً ويميناً ليطقطقها، مستعداً لمعركة لا بد واقعة بينهما، قرر أن يخرج منها منتصراً، مهما اشتد أوارها، فلن يدفع مليماً أحمر واحداً، زيادة عما يدفعه للبيت كل شهر، حتى لو شافت سيدة حلمة أذنها. رشف رشفة من الشاي الداكن، المائل للسواد، وقال لها من بين أضراسه:

– قولي:

من قرار عميق، حاولت سيدة دفع شجاعتها لتستقر على لسانها، وتنطق بما تودّ قوله، لكن الشجاعة كانت قد انزلقت سريعاً إلى قاعها من جديد، وخرج صوتها ضعيفاً بلا سند:

– أصل الموضوع هو أني اكتشفت إني...

– حامل؟!

وقف الزوج صارخاً، كمن فوجئ بجلوسه عفواً على خازوق، وخرجت منه «معقول؟!» مزفوفة برذاذ الانفعال.

معقول أن تكوني حاملاً يا سيّدة من جديد؟!، طيّب، وتربة أمي لأجعل نهارك ليلاً، لو طلع الموضوع جدّ، لأني زهقت من العيال وحملهم، وجيبي فارغ، يعني لا خلفة ولا إجهاض وتصرّفي يا شاطرة.

هرش ما بين فخذيه، وسار كالمجنون مقترباً من النافذة، التي تطل على الشارع المفعم بضجيج الناس والسيارات، وفكر مغتاظاً فيما يمكن أن يفعله معها. أيضربها؟ أيبطحها أرضاً، ويركلها بقدميه حتى تدمى، وتُسقِط ما بأحشائها، أم يفتح النافذة عن آخرها، ويلقي بها خارجاً؟!. ولولا السيجارة التي كادت تحرق اصبعيه، فعاد لدفن عقبها في المطفأة، ربما ما وجدت سيدة فرصة – بعد أن استقلت شجاعتها مصعداً لتصل إلى لسانها – لتقول له:

– بلا حمل بلا كلام فارغ، الموضوع أن صوتي أصبح جميلاً جداً.

– سمّر عبد الحميد نظراته عليها لثوان، ظل خلالها حائراً، ثم انفجر ضاحكاً ضحكاً هستيرياً، كمن سمع لتوه نكتة لا نهاية لها، بينما دفقات الدم تتصاعد بحدة إلى رأسه، فتجعل وجهه المنتفخ أشبه ببالون أحمر على وشك الانفجار، وبقيت قسماته وأسنانه تتبادلان الحركات في موجة مستمرة من الانفعالات، لم يوقفها إلا صوت زوجته الغاضب:

– إسمع الكلام، الأول.

جلس. فأخذت تحكي له ما حدث لها على وجه التحديد، فبعد مغادرته المنزل في الصباح إلى شغله، وبعدما ذهب العيال للمدارس، بقيت هي وحيدة كعادتها في البيت، وشرعت في قضاء أشغالها، الكنس والمسح والطبيخ وترتيب الحجرات، ثم انها بعد أن أذن الظهر قالت لروحها: «فلتدخلي الحمّام يا بنت وتصبي على جسمك سطل مياه، ينعشك وتزيلي عنه الوساخة. لكن بعد أن خلعت سيّدة هدومها، وغسلت رأسها مرتين، وبينما كانت تزيل الصابون عن عينيها، خطر لها أن تغني لتسلّي نفسها كالعادة، وما أن شرعت في أغنية «أحب عيشة الحرية»»، حتى شعرت وكأن شخصاً آخر دخل عليها الحمّام، وبدأ يغني بدلاً منها، لأن الصوت لم يكن صوتها الذي تعودته، بل كان صوتاً جميلاً، رخيماً، لا يمت لصوتها بصلة، فما كان منها إلا أن صبت على عينيها الماء لتزيل الصابون عنهما بسرعة، وبحلقت في الحمام ملتفتة بحثاً عن ابن آدم أو أي مخلوق آخر، وهي تسمّي بالله وتستعيذ من الشيطان، لكن نظراتها لم تصطدم إلا بالشبّاك الوحيد المغلق بإحكام، ومرآة الحوض الموضوعة على رفها فرش الأسنان، وملابسها النظيفة المعلقة على مسمار الباب، التي أخرجتها لتوها من الدولاب، فتشهدت وسكتت معاودة الاستحمام، فلما تيقنت أن لا صوت معها غير صوت الماء المنسكب على جسدها، عاودت الغناء من جديد «أحب عيشة الحرية»، فخرج الصوت منها أكثر جمالاً وصفاء وقوة، فتسمّرت الليفة في يدها على فخذها، الذي كانت قد بدأت في دعكه، وبسملت، وتعوذت من الشيطان الرجيم، ورغم اعتقادها بأنه لا يوجد عفريت إلا ابن آدم، إلا أنها خافت وتسارعت دقات قلبها، فنادت على نفسها بصوت خفيض: «يا سيّدة، يا سيّدة»، فأتاها أيضاً صوت غير صوتها الذي تعرفه، وكان جميلاً أيضاً، فراحت تعلّي الصوت أكثر، وتنغّمه: «يا سيده ه، يا سيده ه»، وقد انتابتها حالة من النشوة والفرح الشديد، لكنها انتبهت فجأة: «ربما سمعني أحد، أو أنك رجعت إلى البيت يا عبد الحميد، لأي سبب من الأسباب، وسمعتني أنادي نفسي، فتظنّ أن عقلي طار، أو جرت لي لوثة، فسكت وخلّى الرعب لساني حطبة ناشفة، وأسناني خبطت على بعضها، وقلت لروحي: يمكن أن تكون حكاية العفاريت حقيقة، وبقيت أقرأ في سري «قل أعوذ برب الفلق من شر ما خلق»» لحين ما خلصت، ونشّفت جسمي بالفوطة، ومن ارتباكي لبست الجلابية خلف، خلاف، وفتحت الباب، وخرجت أجري إلى الشباك، أبصّ منه على الناس في الشارع وأتآنس، ولما روحي رُدت، وارتحت، رحت، قاعدة على الكنبة، أسرّح شعري، وبعدها، وكأني سمعت هاتفاً، لقيت نفسي، من جديد، أغني «يا حلاوة الدنيا يا حلاوة»، فتصور يا عُبَد، لقيت صوتي أحلى وأحلى، صوت كأنه طالع من الجنّة، صوت يسحر ولا مثيل له في الدنيا أبداً، وبصراحة، انبسطت وارتحت، وقلبي زال عنه الخوف، لأني شعرت أن من المستحيل أن يكون الصوت صوت جن، فهو صوت أنسيّ، وطبيعيّ خالص، لكنه مختلف كثيراً، وغير صوتي القديم.

ثم أنها قالت له وهي تنظر في عينيه بطيبة، ورضا عميقين:

– إسمع والنبي يا عبد الحميد.

وهمّت أن تغنّي، لكن عبد الحميد أسكتها بنظرة حازمة، وكأنه لم يسمع ما قالته أبداً، ثم سألها إن كانت قد أخبرت أحداً غيره بهذا الموضوع، فلما استنكرت استنكاره، وأكدت له أن الحكاية حدثت منذ ساعات قليلة، وأنها لم تقابل أيّ مخلوق سواه بعد خروجه في الصباح، تنهّد بارتياح، وطلب منها نسيان الأمر، و«إياك تفتحي السيرة مع أي كائن يا سيّدة، وخصوصاً العيال». فغضبت لأنه لا يصدقها، ثم أنها حلفت أغلظ الإيمان لتؤكد أن ما قالته قد حدث بحق وحقيق، وأنها لا تشكّ في العفاريت لأنها، منذ دخلتها في البيت قبل عشرين سنة، ما شافت واحداً منهم، وتجمّعت الدموع في عينيها وهي تنفي له بشدة أن يكون عقلها قد خف أو جرى لمخها أي شيء.

جلس عبد الحميد على الكنبة، وطلب منها أن تعمل له قهوة بسكّر خفيف، وبيما هي تدخل رجليها في خفها المنزلي، وتهم بالذهاب، صعبت عليه حالها، وقال لها:

– اسمعي يا سيّدة، أنت فتّ الأربعين، وعندك أربع عيال، يعني كلامك لتّ فارغ، يقلل من قيمتك، ويجعلك مضحكة قدّام الصغار، فما بالك لو سمعه أي إنسان واع؟!، ثم افرضي أن كلامك صدق، فما معناه؟!، وناوية تغنّي مثلاً؟!، تصيري مطربة؟!، أما حكاية والله!.

ضحك بارتياح لأنه رأى الموضوع بسيطاً، وبعيداً عن مخاوفه، التي توقعها، ثم أنه لطمها على مؤخّرتها مازحاً، وهمس لها: «بعد القهوة تعالي نتمدد في السرير مع بعضنا».

- 2 -

سارت الأمور، بقية اليوم، سيرها المعتاد، وكاذت سيدة تنسى ما حدث لها عند الصباح، حيث ظلّت تنجز شؤون الجزء الثاني من النهار بحماسها المعتاد، فطبّقت الغسيل، ودارت بالشاي على العيال وهم يستذكرون دروسهم، واقتنصت نصف ساعة للفرجة على المسلسل التليفزيوني، ولما عاد عبد الحميد من المقهى، الذي كان قد نزل إليه بعد الغروب، أعدت له العشاء مع الأولاد، فمازح منهم من مازح، ووبخ من أراد توبيخه؛ لكنها في المساء عندما اختلت بروحها، بعد أن غاب عبد الحميد في النوم، فكّرت حائرة فيما ستفعله حقّاً بصوتها، هذا الصوت الجميل، الذي اكتشفت فجأة أنه مدفون في داخلها، كالذي اكتشف كنزاً عجيباً ولا يدري ما الذي يمكن أن يفعل به. أخذت تنشّط فكرها، فكانت تأتيها إجابة منطقية وحيدة دوماً: الصوت الجميل خلق للغناء. فلماذا لا تغنّي ويسمع كل الناس صوتها، وراودها شعور بأنه من العدل أن يسمع الناس صوتها، وأنه لا علاقة للصوت بالعمر، فما المانع أن يسمع الناس صوت الإنسان بصرف النظر عن عمره ووضعه، سواءً أكان رجلاً أم امرأة. كانت قد اقتنعت تقريباً بهذه الفكرة، فتملكتها رغبة عارمة في أن تجلس في الفراش وتغني «يا حلاوة الدنيا يا حلاوة» فهبت جالسة، وبينما هي تشرع في فتح فمها لتبدأ، تقلّب عبد الحميد في الفراش وأحس بها، فنظر إليها بقلق، وسألها:

– مالك يا سيّدة؟!

فقالت أنها ذاهبة إلى المطبخ لتشرب، لأن ريقها ناشف بعض الشيء.

- 3 -

جن جنون سيّدة، لما بدأت تغني، في صباح اليوم التالي، وهي تقف أمام الحوض، لتغسل المواعين المتخلّفة عن وجبة الإفطار بعد خروج عبد الحميد والعيال، فعاودها الصوت الجميل مرة أخرى، حيث بدا خلاباً، سماوياً، فيّاضاً بالقوّة والنقاء، وداخلها شعور بأنها كائن آخر، لا علاقة له بسيّدة التي تعرفها، سيّدة التي تمسح وتكنس، وتلفّ رأسها في منديل كلّ يوم، لكونها لا تجد الوقت الكافي، الذي يسمح لها بأن تحطّ مشطاً في شعرها. شطفت يديها من الصابون بسرعة، وجففتهما بطرف قميص نومها، الذي لم تخلعه بعد، وجرت إلى المرآة، فوقفت أمامها، وغنّت: «أحبّ عيشة الحرية» فتجلّى الصوت من جديد قوياً، نقياً، واضحاً، كقطعة من الجوهر النفيس. راقبت نفسها، شفتيها، وهما تتراقصان بنشوة، الكلمات المنغمة، عينيها المشعتين بالحماس والفرح، وجنتيها المشرّبتان بحمرة دماء غريبة، خالت أنها تفجّرت من ينابيع خفيّة بجسدها، حاجبيها اللذين يتقابلان وينفرجان في حركات منظومة ويقودان ملامح الوجه في تناغم بارع وكأنهما يدان ماهرتان لقائد فرقة موسيقيّة رائعة.

شعرت أنها جميلة، ربما لأول مرّة منذ زمن بعيد. داخلها هذا الشعور مجدداً. توقفت تنظر إلى وجهها، استنكرت إهمالها لحاجبيها وتركهما دون رعاية وتنسيق، وخجلت من اكتشافها لشاربها الخفيف أسفل أنفها، وحزنت لأنها تتجاهل شعرها إلى هذا الحد، ثم أنها شعرت بغضب من نفسها، فلماذا تترك حالها على هذا النحو، بينما هي تمتلك هذا الصوت الجميل الذي يأتي من داخلها. توقّفت. قرّرت: «لكي أغنّي مفروض أن أشعر بالجمال، أي والله مفروض».

- 4 -

ارتدت سيّدة ملابسها بسرعة، فقد كان عليها، ولا بد، أن تنزل للشارع لتشتري الخضار والعيش قبل رجوع عبد الحميد والعيال إلى البيت، جلبت كل الطلبات، وذهنها مشغول بالموضوع إياه، لم يكن لديها، بالطبع، أية خطة تتعلق بكيف ستغني ومن أين تبدأ، وكيف ستواجه عبد الحميد بهذا القرار، فكرت في الذهاب إلى أية صديقة تبوح لها بالسر، كما تفعل النساء في الأفلام، لكنها اكتشفت، ولأول مرة في حياتها، أن ليس لديها صديقة واحدة، إنسانة حميمة، قريبة إلى قلبها، غير أمها وأختها عواطف، اللتين كانت قد استبعدتهما من البداية، بسبب علمها السابق بموقفهما، لو حكت لهما الموضوع، وهو السخرية منها، والضحك على كلامها وتحويله لنكتة، ونشرها أمام كل من دخل عليهما من الأقارب؛ فكرت في أم حسن جارتها، لكن أم حسن رغم علاقتهما الطيبة جداً، عمرها، ما كان بينها وبين سيدة أسرار. وشعرت لأول مرة في حياتها بالحقد على عبد الحميد، لأن له أصحاب يقعد معهم في المقهى، وسيّد اسماعيل صاحبه، الروح بالروح، الذي يمكن أن يكون حكى له أسراراً، عمره ما قالها لها، رغم كونها وليفته وولدت منه أربعة بطون.

ظلت انفعالاتها متلونة، بألوان متباينة، حتى وهي تدخل دكان عيسى البقال لتبتاع منه جبناً ومكرونة وعشر بيضات، ولم يكن عيسى العجوز بحاجة للتدقيق حتى يلاحظ اضطرابها، فسألها: مالك مرتبكة في الصبح يا ست سيّدة؟.. وقبل أن ترد قرر أنّه يعرف، فالحياة صارت صعبة، والغلاء غول سارح في كل شيء بلا ضابط أو رابط، بينما الناس تمشي وهي تكلّم أرواحها من الغلب وقصر اليد (طبعاً كان عيسى قد لاحظ أنها تكلم نفسها قليلا)؛ ثم قال لها – وهو البقال القديم الذي يتعاملون معه منذ زمن طويل، وتربطه بهم علاقات جيرة ومودّة – أنه عارف أن عبد الحميد يسعى على قدر مستطاعه، ليسدّ طلبات العيال، وأن عليها أن تطوّل بالها عليه، غير أنه تعجّب لما وجدها تنفجر باكية، فجأة، وتنشج كمن مات له ميت، فسحبها عيسى من يدها، وأجلسها على كرسي، ثم فتح لها كازوزة وقال لها: روقي واخزي الشيطان.

كان الوقت صباحاً، والدكان لم تؤمه الزبائن بعد، فاقترب الرجل منها هامساً بجدّ: «حصلت مشكلة بينك وبين عبد الحميد لا قدّر الله؟»، فصعبت عليها نفسها أكثر، وانتحبت من جديد، فلما استعادت نفسها قالت له: «اسمع يا عمّ عيسى، محتاجة أن أكلمك في موضوع، خصوصي، بعض الشيء، بشرط، تحاول تفهمني ولا تتكلم مع عبد الحميد بشأنه، لأنه حلف يميناً بالطلاق أن «أكفي على الخبر ماجوراً» وأمتنع عن الكلام مع أي مخلوق بخصوصه».

شعر عم عيسى أن الموضوع خطير فعلاً، وتملكته رغبة لا تقاوم في سماع سرّ عائلي، يخصّ بعضاً من سكان الشارع. سرت في روحه متعة المقبل على معرفة نميمة جديدة لا بد أن يوظفها سريعاً، فجرّ كرسياً واقترب منها جالساً، ليسمع الحكاية دون أن يفوته حرف واحد منها، فقالت كمن يدلي بسرّ رهيب:

– حصل أنّي اكتشفت صوتي.

أخذت تقصّ عليه ما حدث لها، وما كان من كلام بينها وبين عبد الحميد بخصوصه، لم يضحك الرجل، أو ينبس ببنت شفة، كما يقولون في الكتب فلما انتهت من حكايتها، وقالت له، وهي تبتسم خجلة، إنها مستعدة لأن تسمعه صوتها الجميل، ليتأكد بنفسه من كلامها، نظر إليها بتمعن مشفق، وقال لها:

– إشربي الكازوزة يا سيّدة!.

لم تشرب الكازوزة، بل أخذت ما اشترته منه، وذهبت، وعندما عاد عبد الحميد بعد الظهر، وأثناء تناولهم للغذاء، قال لها انه اشترى كبريت، وهو راجع إلى البيت، من دكّان عيسى البقّال، وسيذهب إلى الطبيب عند المساء، ويجب أن ترافقه.

- 5 -

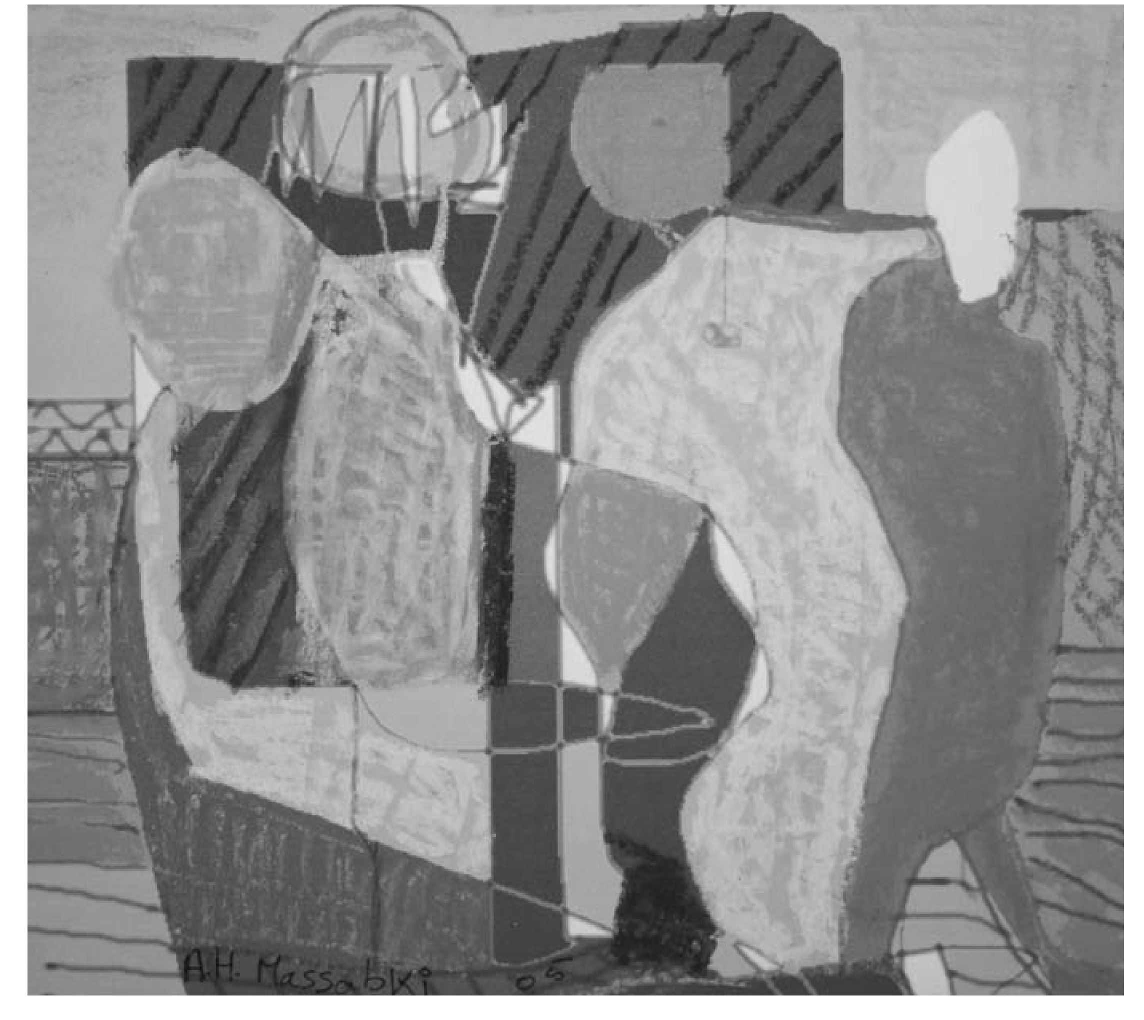
لما وصلا عيادة الطبيب النفسي، كانت سيّدة مقتنعة بعض الشيء بفكرة زوجها، الذي قال انه يحبها، ولا يريد إلا مصلحتها ومصلحة الأولاد، وأن المرض النفسي مثله مثل أي مرض آخر، ولا عيب في ذلك، بل وقابل للشفاء، لكن المهم أن يعالج بسرعة، وفي بدايته، وأنها والحمد لله بخير، لكن حكاية الصوت ربما يكون سببها الإرهاق من شغل البيت، أو أي مشكل مخفي جواها ولا تشعر به، لأن داخل كل إنسان بحر وسيع لا قرار له، والنفس سرّها عميق، وسبحانه وحده العارف بما في داخل كل إبن آدم، المقصود، الإنسان صعب أن يعرف نفسه يا سيّدة. والطب جعل للظروف الصعبة، ثم إني يا سيّدة، رغم تعليمي البسيط، مؤمن وموحد بالله، لا أؤمن بحكاية الجنّ والعفاريت، لأن ربنا قال في القرآن: «وجعلنا بينكم وبينهم سداً منيعا»، ثم، يا أختي، خلينا نجرب، القصد، غرامة عشرة جنيهات من ضمن الفلوس الطيّارة طيران العصافير، ولا عارفين نتحكم بها، لكن يمكن أن يكون فيها الشفاء بإذن الله، وكل شيء يرجع لطبيعته، وتستريحي، ثم إنك الصبح قلت لعيسى البقّال، لكن بكرة أو بعده، يمكن، غصباً عنك، أن تقولي لغيره، أو يحصل شيء يخلّي صورتنا قدّام الناس مسخرة، ويطلع عليك كلام، بدون داع، وأنا، يا سيدة، لولا أني باقٍ عليك، وعلى العيال كنت صهينت على الموضوع، وسكتّ، لكنّك عارفة بمعزّتك عندي، لأنك أمّ أولادي وشريكة عمري.

دخلا مكتب الطبيب، وجلسا، وبدا لها الرجل الذي سألها عن مشكلتها، متبرماً، ومتأففاً، وقلقاً، وفي عجلة من أمره، فبدأ عبد الحميد، يحكي له القصّة باختصار، لكن الطبيب طلب منه، وهو ينقر بقلمه على زجاج مكتبه، أن يتركها تحكي، فقالت سيّدة كل ما عندها منذ اللحظة الأولى لدخولها الحمام، وحتى حديثها مع عيسى البقال، فلما أكملت، وهي التي لاحظت أن الرجل استمع إليها بإهتمام دون مقاطعة، سألته، وهي تبتسم مسرورة، لشعورها بأنه تفهم موقفها:

– ممكن، أسمعك غنوة صغيرة، يا دكتور؟.

لم يظهر أي تعبير بالاهتمام على ملامح الطبيب، الذي يبدو أنه اعتاد مثل هذه الأشياء، لم يبتسم، لم يكشّر، لم يردّ. فقط، كتب كلمات بلغة أجنبية في ورقة، ثم أعطاها للزوج وقال له: ثلاث حبات يومياً من النوع الأول، بعد كل وجبة، وحبّة كل مساء قبل النوم، ثم التفت إلى سيدة قائلاً: ابتعدي عن أي شيء يسبب لك التوتر، ولا تبقي بمفردك أبداً، أديري المذياع وأنت في الحمام، كل جيداً، ولكن حاولي أن تمشي وتنقصي وزنك لأنك سمينة، وداومي على الدواء، وعندما تشعرين أنك متضايقة، وحالتك سيئة، تعالي بسرعة إلى العيادة؛ ثم وقف ومد يده إليها قائلاً:

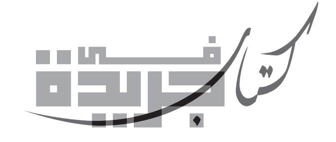
– أهلاً.



- 6 -

خرجوا كعادتهم، وبقيت هي، وحيدة في البيت، قامت متكاسلة دون حماس تلمّ صحون ما بعد الإفطار، التهمت ما تبقّى من طعام، في الأطباق، وهي تقول لروحها كالعادة: «حرام أن أرمي لقمتي الفول في الزبالة، وفتات الجبن لا يستحق أن أبقي الطبق له» ثم أنها أعدّت لنفسها كوباً من الشاي، راحت ترتشفه مع قضمات من كعكة جافة بقيت وحيدة على طاولة الطعام، فلما شعرت بالامتلاء الزائد قامت تجرجر جسمها لترتب الحجرات وتكنسها.

وبينما هي في حجرة النوم، وجدت نفسها وجهاً لوجه، أمام المرآة، تأملت نفسها في قميص النوم: وجه أصفر شاحب، رغم امتلائه، ونظرات بلا حيوية، وملامح بلا تعبير، كمن غابت عنه الحياة، استجمعت نفسها، وحاولت أن تغني «يا حلاوة الدنيا يا حلاوة»، جاهدت، لم يخرج صوتها أبداً، تنحنحت، جربت «أحبّ عيشة الحرية»، لكن هيهات أن يأتي الصوت الذي انحبس في حلقها، وكأن فلينة هائلة قد سدّته بإحكام، راحت تتنحنح أكثر، أخيراً قررت أن تقول شيئاً آخر «يا ليل، يا عين»، فاجأها صوتها القديم، الذي عرفته منذ أو وعت الحياة، صوتها هي، مبحوحاً، ضعيفاً، يخلو من كل جمال وصفاء وقوة، تأملت نفسها مرة أخرى، كان وجهها هو الوجه الماضي، الوجه الذي عرفته من زمان، ابتسمت بمرارة، وهزت رأسها بأسف، ثم أنها حملت علبتي الدواء لتفرغهما في المرحاض.


كتاب في جريدة

عن الروح التي سُرقت تدريجياً

يوم حريق الأوبرا المصرية، على وجه التحديد، تزوج شاكر من سامية جارته في الشارع، وزميلته في المدرسة الابتدائية المشتركة عندما كان تلميذاً صغيراً؛ ورغم أن خبر الحريق، الذي تلقاه قبل زفافه بساعات لم يؤثر في أحد من المدعوين، إلا أن شاكر تكدّر قليلاً، وشعر بحزن داخلي قلل من ابتهاجه بهذا الحدث الخطير في حياته، لأنه كان يحب سامية بالفعل، وينتظر اللحظات التي تصبح فيها زوجة له، يجمعهما سقف بيت واحد، حتى آخر لحظات العمر.

ولعل سبب حزن شاكر، كونه يختلف قليلاً عن معظم ضيوف فرحه، فهو محب للثقافة، متذوق للفنون، التي شاهد بعضها على مسرح الأوبرا ذاتها، ناهيك أنه كان يحب المبنى ذاته، ويشعر بالفخر لأنه أتيح له أن يجلس على مقاعده المخملية الوثيرة، وأن يسير على أرضه الخشبية المكسوة بالسجاد الثمين، وهو الشيء الذي لم يكن متاحاً لأمثاله من قبل، يوم كان يُطلَقُ على ذلك المبنى «دار الأوبرا الملكية»، ثم أن حزنه زاد عندما فكّر: أليس ذلك المبنى شاهداً على أحداث وأزمان مضت؟، أليس من الخسارة تركه يغيب عنا على هذا النحو المؤسف ولسبب غير مفهوم؟!.

ورغم أن شاكر لم يكن من المتطيرين أبداً، ولم يؤمن قطّ بالأقدار والمصادفات، إلا أن إحساساً خفياً، ظل يلازمه دوماً، ولسنوات طويلة، امتدت حتى الآن، بأنّ هناك ارتباطاً بين ذلك الحدث، وصيرورة الحياة التي يعيشها بعد ذلك اليوم، علماً بأن علاقته بسامية ظلت طوال الوقت، ومنذ اللحظة الأولى لدخولها بيته، الذي هو في الحقيقة بيت أمه الأرملة، علاقة طيبة حميمة، فسامية سرعان ما خبرت عاداته، وأسلوبه في الحياة، المتمثل في الهدوء والنظام، وتمضية الأوقات بعد انتهاء العمل في متع إنسانية راقية، كالذهاب إلى السينما، إن وجد فيلم جيد، أو المسرح عندما تعرض أعمال أدبية يؤديها ممثلون ممتازون، أما في معظم الأمسيات فكانت القراءة هي طقس شاكر الليلي، الذي سرعان ما اعتادته سامية، وشيئاً فشيئاً، أخذت تشارك فيه، متخلية عن قراءة المجلات السيّارة والقصص العاطفية المسلّية، لتلج عالم الكتب الوسيع، وشاكر يساعدها على التقبل، والتمعن، والاستمتاع، ولم تمض شهور قليلة، إلا وكان الكتاب رفيقاً دائماً لهما معاً في ساعات ما قبل النوم.

في الفترة الأولى للزواج، وضع شاكر خطّة لسنوات عمرهما المقبلة، على ضوء الزيادة المتوقعة في راتبيهما، بحيث يعيشان، في يسر، ويدّخران جزءاً من النقود، لمواجهة أي طارئ قد يطرأ على حياتهما، عبر الزمان، وكانا حتى ذلك الوقت يترددان على دور السينما كثيراً. أحياناً أكثر من مرة في الأسبوع، إذا ما تصادف وجود أكثر من فيلم جيد، كما أنهما شاهدا عديداً من المسرحيات الجميلة، وكان هذا يجعلهما يعودان لمنزلهما وهما في قمة الانبساط والرضا، وفي الصباح، كانا يقبلان على عملهما الوظيفي وهما في غاية الانشراح، حتى أن سامية كانت تتحمل سخافات الجمهور، في المصلحة الحكومية، دون توتر أو ضيق، أما شاكر فكان، عادة، يحكي لزملائه في الإدارة ما شاهده بالأمس، مبدياً وجهة نظره في الفيلم أو المسرحية، فتثار نقاشات تتفرع وتمتد، ويشارك فيها، حتى، حسن الفراش خلال تقديمه المشروبات الساخنة والباردة لهم.

وفي أمسيات أخرى لا تنسى، كانت سامية تقوم بريّ النباتات والزهور الموضوعة في الأصص بالشرفة، أو تداعب قطهما، كان شاكر يفاجئها وفي يده تذاكر لحفل موسيقي، أو فرقة راقصة، ويطالبها بارتداء ملابسها سريعاً، لأنهما سيمرّان، قبل الحفل، على صديقيهما فريد وخطيبته نجوى. كان ذلك يتكرر عادة، فيذهب الأربعة لمشاهدة فرقة فنون شعبية، أو للاستماع إلى مجموعة موسيقية زائرة، يخرجون بعدها إلى أحد محلات وسط البلد، فيحتسون شيكولاته مثلجة، أو قهوة لذيذة ساخنة، وفقاً لطقس الأيام. وقتذاك، كانت سامية تبدو دوماً مرتدية ثياباً بسيطة، وبوجه متجمل بأقل مساحيق ممكنة، أما نجوة التي كان فريد يهيم بها منذ أيام الجامعة، فغالباً ما كانت تُدخِلُ نفسها في بنطال داكن، وتنتعل حذاء بلا كعب تقريباً، فتبدو جذابة جداً، بلمعة الذكاء في عينيها، وشعرها الناعم، الملموم على هيئة ذيل فرس، يهتز مع حركة رأسها العصبية، معبراً بذلك عن جانب من شخصيتها الصريحة الواضحة كانت هذه العادات البسيطة تبدو في عين شاكر مسرّات أبدية، لا يمكن أن تزول أبداً، مسرّات تجعله يصيغ لنفسه، كلما اختلى بها، تعريفاً بسيطاً للسعادة: امرأة إلى جانبك، تبادلك الحب والمودة، وصديق مخلص، يشاركك الأفراح والأتراح. وماذا يتبقى أيضاً؟، إمتاع الروح والنفس بمباهج سامية تعبر العقل إلى القلب.

كانت الأيام تمرّ، وشعور يتزايد لدى شاكر بأن السعادة والفرح يتقلصان من حياته شيئاً فشيئاً، كان يشعر بأن هناك محاولات خفيّة تجري لسرقة اللحظات الجميلة في الحياة، دون أن يدرس سبب ذلك، وكلما تزايد لديه هذا الشعور، كان يتذكر دار الأوبرا على الفور. مرة، تشاجر مع سائق سيّارة أجرة، أصر على إسماعه أغنيات مبتذلة الكلمات والموسيقى، عبر شريط مسجّل، طوال الطريق، كذلك، لازمته عادة تحسس ربطة عنقه بيده، ومحاولة توسيع عقدتها، كلما تطلع إلى بنايات ضخمة جديدة، تشيّد في المدينة؛ أما قلقه على نفسه، فقد أخذ في التزايد كلما شعر بحنين غريب إلى النوم، أسفل شجرة مورقة لم يعد يلتقيها في طريقه إلى عمله؛ الأكثر من هذا، هو أن فترات خروجه مع سامية صارت متباعدة، أما فريد ونجوى، فربما مضت شهور دون أن يلتقي بهما، أو حتى يسمع صوتهما عبر التليفون، لأن مشكلة الحصول على شقّة يتزوجان بها، جعلت فريداً مضطراً للعمل إثني عشر ساعة يومياً، في وظيفتين مختلفتين، ورغم أن شاكر يُحسب من الأذكياء، إلا أنه لم ينتبه إلى تسرب أشياء كثيرة، واختفائها من حياته؛ وربما كانت عادات، أو مواقف وكلمات، فهو لم يعد يبتاع الزهور من الباعة العابرين بالطرقات، واختفت من حياته عادة التنزه وقت الغروب بجانب النهر، ثم أنه لم ينتبه إلى اختفاء الأعياد التي كانت تملأت أيام السنة، حتى أنه عندما كان يقلّب، بالصدفة، أوراق مفكرة قديمة، فيقرأ عيد المعلم، أو عيد الجلاء، كان يكتفي بالتنهد، ويستمر باحثاً عن عنوان طبيب، أو هاتف زميل قديم في العمل.

أيضاً، تبدلت عادة الذهاب إلى السينما، بعادة جديدة لشاكر وسامية: الجلوس أمام التلفزيون مساء كل يوم، والفرجة على أي شيء، وكل شيء.

في إحدى المرات، وبينما كانا يشاهدان فيلماً من خلال ذلك الجهاز الصغير، قالت سامية لشاكر: «ياه، المشهد نفسه شفته في فيلم زمان، فاكر؟!». وقتها لم يتذكر شاكر – المهتم بالثقافة بعض الشيء، وبالسينما كثيراً – اسم الفيلم الذي تعنيه سامية، لكن ذلك كان مناسبة أثارت في روحه ذكريات جميلة، تتعلق بالسينما؛ وطقوس الدخول إليها بالهندام المنسق، والاستقبال المهذب للعامل الذي يدل المتفرجين على أماكن جلوسهم، بينما روائح عطور النساء، في مقاعد الدرجة الأولى، تهبّ بسخاء في أنحاء القاعة، وعندما يتذكر ذلك، كان الحنين يأخذ شاكر بعيداً، فيقترب من سامية، ويطوقها بذراعيه في رقّة، بينما تعبر روحه ذكرى قبلة قديمة تبادلاها بعد إطفاء الأنوار، عندئذ يقول لها هامساً: تعالي نروح السينما بكرة.

لكنهما لم يذهبا أبداً.

... فعندما يأتي بكرة، وإذ هما يحتسيان شاي ما بعد الغداء، تفتح سامية الجريدة، وتتصفحها، بحثاً عن فيلم معقول بين الأفلام المعلن عنها، وتبدأ في القراءة، تجد عناوين مثل «موعد القتلة»، «التنين الدامي»، «وكر الأشرار»، فتسارع بإلقاء الجريدة، وتزفر قائلة: «أفلام زفت»، ويسود صمت، لا يسمع خلاله إلا رشفات الشاي. أحياناً، يكون هناك فيلم معقول فتقول لشاكر: «نروح حفلة تسعة»، لكنه يعترض، ويقترح تأجيلها لليوم التالي، بدلاً من انتظار الاتوبيس في وقت متأخر عند الخروج، وحضور حفلة الساعة الثالثة بعد خروجهما من العمل مباشرة، عندئذ تبتسم سامية موافقة، وتتنهد برضا، سرعان ما يزول، إذ يصرخ شاكر بعد قليل: «يا خبر، السبَّاك ميعاده بكرة الساعة أربعة لتركيب ماسورة الحمام الجديدة». أو «ياه، لازم، أروح الجمعية، أشتري اللحم قبل ما يخلص، بكرة الخميس». أحياناً، تكون سامية مبعث الاعتراض: «صعب أن نروح بكرة، لازم استلم كستور البطاقة، وإلا يروح علينا»، أحياناً لا تكون هناك مواعيد ولا عقبات، ولا مشاوير ضرورية بديلة، فقط يكونان في آخر الشهر.

تطوي الأيام بعضها. يخبو الحماس للسينما، مثلما يخبو بالنسبة لكل الأشياء الأخرى المماثلة: «ياه، الدنيا برد!»، «معقول؟! نخرج وننتظر المواصلات ساعة!؟..» «معقول؟! تذكرة لفرقة شعبية بخمسة جنيهات؟! يعملوها في الشيراتون أحسن!»، «مجموعة قصص بثلاثة جنيهات؟!، اشتريت من السور، زمان، عشرين كتاباً بجنيهين!». كان شاكر يردد العبارة الأخيرة، وهو يتحسر على سور الأزبكية، فقد ظل السياج الحديدي القديم المحيط بحديقة الأزبكية جزءاً من روحه وتاريخه الخاص، كان قد ألف ذلك المكان مذ كان طالباً شاباً، لم يتخرج من الجامعة بعد، يتردد عليه بين الحين والحين، باحثاً في أكوام الكتب الموضوعة عليه، عن كتاب جيد، زهيد الثمن، يُمضي معه ليلته، داخلاً عوالم أخرى مبهرة، عبر الكلمات والسطور، وعندما أنهى دراسته، وعُيّن في الحكومة، كان عليه أن يعبر السور مرتين كل يوم، في الصباح، وبعد الظهر، حيث يخترق الطريق من وإلى بيته الكائن في الحي القريب من وسط البلد، ورغم أن شاكر ما زال في عز شبابه، إلا أن تحول الأشياء الجميلة على نحو سريع، لتصبح ذكريات، جعله محملاً دوماً بمشاعر شيخ أرهقته السنون، وسور الأزبكية أحد تلك الذكريات، ففي مواجهته، كان مبنى دار الأوبرا، الأبيض البديع، وكان المرء، عندما يقف مقلّباً في كتاب من الكتب الكثيرة المتراصة فوق بعضها، يستطيع أن يرى بوضوح تمثال ابراهيم باشا راكباً على فرسه، فيتجسد شعور بأن ثمة ماض كان هنا، وثمة تاريخ يمضي ويتواصل عبر الزّمان، ورغم أن ذلك السور، طالما خبأ خلفه عالم الأزبكية السفلي، بكل ما يضمّه من لصوص، ومتسولين، وقوادين، بالإضافة إلى عشاق القاع، صانعي قصص الغرام المستحيلة، والذين لا يملكون إلا الجلوس على مقعد حجري متشابكي الأيدي، إلا أن شاكر كان يحبه، مثلما يحب أي شيء آخر في هذه المدينة، فهو وجه من وجوهها السرية الغريبة المتعددة، التي لا تكشف عن نفسها، إلا كلما أوغل المرء فيها. ساعياً لتحسس ملامحها، والغوص في أعماقها، فتقدم وجهها مستوراً، مبهراً بتناقضاته، وعذوبته الإنسانية الخاصة.

ومثلما تقلص كمُّ الكتب على السور، واحتلت أماكنها اللوحات الفجّة، والصور الملونة السخيفة، وكل الأشياء الأخرى التي تفسد الروح، تناقصت الكتب أيضاً في بيت شاكر، حتى الصحف والمجلات أصابتها سهام التغيير، فجريدة واحدة «كفاية، كل يوم»، مجلة في الأسبوع «معقول جداً»، وبمرور الأيام، انضم شاكر لآلاف القراء المتسببين في انخفاض أرقام توزيع الصحف والمجلات في السنين الأخيرة، أما صلته بالسينما والمسرح، فقد باتت مقطوعة تقريباً، بينما أصبح مشدوداً بخيوط قوية غير مرئية إلى جهاز وحيد، صغير اسمه التلفزيون.

خلال ذلك، كان كرش صغير يبرز شيئاً فشيئاً لشاكر، أما سامية، فقد تفلطح جسمها، وبات كتلة واحدة، بلا حدود أو تخوم، وعندما كانت تُشاهَد في الطريق، كانت تبدو، مثلما الجميع حولها، بشعر كالح مترب، وحذاء وسخ بلا لمعان، وبمرور الوقت، صارت تغطّي شعرها بإيشارب صغير، تحول، في النهاية، إلى طرحة، تغلف رأسها ورقبتها، حيث كانت عدوى الملابس الطويلة، وتغطية الرأس، تنتشر انتشاراً، لا يعادله إلا انتشار وباء الكوليرا سنة 1947، وقد قالت سامية لشاكر، وهي تضحك، عندما رآها لأول مرة في حياته على هذا النحو، حيث بدا الحجم الحقيقي لأنفها الكبير، وسط ملامح وجهها، واضحاً:

«أحسن. بدل الفلوس المرمية في قص الشعر وتوضيبه».

وبفضل إعلانات التلفزيون اليومية، ناضل شاكر وسامية للحصول على ثلاجة، وموقد غاز بفرن وشعلات أربع، وغسالة، وخلاّط، وأدوات كهربية وغير كهربية أخرى «لا غنى عنها في البيت الحديث»، مثلما كانت الاعلانات تقول دوماً.

كما أنهما فرشا الشقّة كلها بالموكيت، وقد كلفهما ذلك كثيراً، لكن بفضل الخطط المالية الدقيقة، والجمعيات المقتطعة من الرواتب، مع الزملاء، في المصلحة، والتي تحقق سيولة لأعضائها، مرة واحدة في العام، وفوق ذلك كله، نظام التقسيط بالفوائد، بفضل ذلك كله، استطاع الزوجان، الموفقان، شراء أشياء كثيرة، وإحداث تعديلات في معمار البيت أيضاً، حيث ارتأيا أنه من الأفضل إقفال الشرفة بحوائط زجاجية، ذات إطارات معدنية. كان ذلك يعني في الواقع: وداعاً يا فل، يا ريحان، والكلمة نفسها تصح على القط الأليف، الذي طالما جرت مداعبته بأطراف الخيط لأنه لا وقت لخدمته، ولا مجال لتحمل مصاريف أكله.

ستائر البيت القديمة تغيرت، أيضاً، بما يتناسب مع لون الموكيت، وكل الأشياء الأخرى الجديدة، وهذه الستائر تختلف كلّية عن ستائر من نوع آخر، لم يستطع المسكين شاكر أن يراها أبداً، كانت ستائر من نوع خاص، تزداد كثافتها يوماً بعد آخر، فتحول بينه وبين سامية، فكانا يختلفان كثيراً، يشعران بضغوط فظيعة تثقل كاهلهما، لا يعرفان من أين تأتي المشكلات، وما سببها، وعندما ينفجر أحدهما أحياناً، ويتشاجران، تنتهي المسألة بعد قليل بصلح لا بدّ منه، حيث تستمر الحياة، فوق الموكيت، مع الأجهزة، خلف الستائر، أمام البيوت العصرية في مسلسلات التلفزيون.




A. H. Massabki 05

انتظار الشمس



- 1 -

«لا حول ولا قوة إلا بالله، والله إنك آذيتني وسمّمت بدني بهذا الكلام. هل لأني تكلمت معك عن حالي وهمي، وفرّجت عن نفسي، بعد أن قلت رجل في مقام والدك يا بنت، لا يضير الكلام معه، تقول ما تقول، وتطلب مني ما طلبت، والله إمّا أنك تمزح، أو أنك خرف مجنون !».

ذلك ما قالته المرأة أمّ الولدين للرجل الجالس إلى جوارها على المقعد الحجري بالحديقة العامة، حيث جاءت، في يوم من أيام هذا العصر والأوان، لتشمّ الهواء في فسحة من الزمان، حيث الشمس الساطعة، والظلال الوارفة، والجدول الجاري، وراحت تسامر ولديها بحكايات عن الطير والحيوان، وإذ بذلك الجالس بجانبها على المقعد الحجري، يشاركها الكلام، على غير عادة أهل هذا الزمان إذا ما التقى بعضهم بعضاً في الأماكن العامة. وكلام يجر كلاماً، تغير الحديث وتطور، وخرج من عالم الطير والحيوان، إلى شؤون بني الإنسان، بل ووصل إلى حدٍّ طلب فيه الرجل الزواج من أم الولدين، فقالت ما قالته، ثم تصعّبت على روحها وحوقلت، وتركت ما بين يديها من شغل الصوف، وراحت تتطلع إليه. تأملته تأمل المرأة للرجل، فوجدته عجوزاً واهناً في عمر من تأخذ منه الأيام ولا تعطي، فتنهّدت وقالت لروحها وهي تلاحظه يرقب سرباً من النمل يسير ناحية الشجرة التي يجلسون تحتها: أتخرجين من نقرة، فتقعين في حفرة، والله لا يحتاج مثل هذا الشيخ إلا إلى ممرضة، تأخذ بيده، وتعطيه الدواء، وتغطّيه قبل النوم عند المساء. والله لو تزوجته لصحّ قول المثل: لُمّ المتعوس على خائب الرجاء.

ثم أنها همّت أن تأخذ الولدين وتمضي مبتعدة عن المكان، غير أن الرجل استوقفها قائلاً – وهو ما يزال محدّقاً بالأرض، لا يرفّ له جفن أو يهتزّ له رمش–: لا تكوني رعناء حمقاء، قليلة حيلة وتدبير، فما أعرضه عليك فرصة بحق، ربما لن يوافيك الزمان بمثلها مرة أخرى، هل تظنين أنني أحببتك حبّ النظرة الأولى؟! أو أني عجوز متهافت على الدنيا، أروح لذّاتها الفانية؟! والله أبداً، فما أردت إلا الوصول للآخرة مرتاح البال والضمير، بعد أن أكون قد غيّرت ما رأيته منكراً بيدي، والمسألة لا تحتاج لأخذ وعطاء، وانتظار وتسويف، فإذا كنت ترومين الشمس، فالله منّ علي ببعض منها، وأنا أعطيها لك، مع نصيب من مالي وموجودي، ولديكِ أولى به من أولادي، وربما صاروا من ملح الأرض الذين سيكشف لهم الكريم نوره، فيسيرون في الدنيا بالرحمة، لا يبغون إلا وجه الحقّ، ثم حثّها أن تعقد أمرها، وطالبها أن تقر قرارها، قبل أن يحمّ حمامه، وينفذ سهم المنيّة فيه، فتبكي بعد ذلك بالحسرة والندم، لأن مَن في مثل عمره لا ينتظر إلا آخرته ونهاية مطافه. وما كان منه، بعد ذلك، إلا أن قام، وحيّاها تحية الأخوان، وأعلمها أنه سيمهلها إلى غدٍ إن شاء الله – لتحزم أمرها وتقرّ قرارها، ثم مشى مشية المتيقّن من أمره، بعد أن وعدها اللقيا في المكان ذاته، وعلى المقعد نفسه، الذي تظلله الشجرة الوارفة، ويقابله الجدول الجاري، وقد ظلت المرأة تتابع ظله يبتعد شيئاً فشيئاً على الأرض، بين مكذّبة ومصدّقة لما جرى لها، ولكلامه معها، وعندما اختفى خياله عند باب الجنينة، أخذت ولديها، ولمّت حاجاتها، وسارت إلى بيتها.

- 2 -

منذ أن تركها الرجل، وحتى صباح اليوم التالي، ظلّت المرأة تفكر في ذلك الغريب الذي طلب الزواج منها، وبقيت مشغولة بكلامه لها، تقلبه على كل وجه، ولم تكن تتذكر مبتدأ الحديث بينهما، وكيف راحت تحكي له كل الذي حكته، عن حالها وعيالها، كل ما تذكرته وتذكره الآن هو أن الشمس ظهرت فجأة من خلال الغيوم بعد أن ظلت ضعيفة واهنة منذ مطلع الصباح، وشملتهم بدفئها شيئاً فشيئاً، وكانت هي عندئذ قد تركت إبر الصوف من يديها، اللتين راحت تفركهما مستمرئة الدفء، عندما قال الولد الصغير معلّقاً على صداح الطيور المتعالي ترحيباً بالشمس: الشمس جميلة جداً يا أمي، أنظري إنها أجمل من السحاب. أنا أعرف أنها سبب حياة البطة والديك، والسمكة والعصفور، ولو ماتت الشمس، لمات الناس كلهم وغطى البرد كل شيء.

قبّلت الأم ضناها قبلة حانية، وربتت على ظهره، أما العجوز فقال كمن يحادث روحه: لولا الناس لما طلعت الشمس. ولم تكن أمّ الولدين قد تنبّهت لما قاله، لكنها رغبت في التكلّم معه، ربما بسبب رغبتها في الحديث، إلى شخص ما، خلال ذلك الصباح، فقالت أنها لا تأتي إلى الجنينة إلا ليجلس ولداها في الشمس ويلعبان قليلاً، لأن البيت بارد ورطب، ولا تزوره الشمس أبداً، سواء في الشتاء أو الصيف، فهو يقع أسفل عمارة محاطة بعمارات كثيرة، تحجب الشمس دوماً. ثم أن الكلام جرّ كلاماً، بحيث لم تعد تدري بعد ذلك كيف أخذت تحكي له عن نفسها، هل عندما سأل الولد الصغير عن أبيه ولماذا لم يأت معهم؟، أم عندما سألها: لماذا لا يستبدلون الشقة بأخرى تدخلها الشمس؟، كل ما تتذكره أم الولدين أنها راحت تحكي له وتحكي دون توقف، عن نفسها، وولديها، وأمها التي ماتت منذ سنة وتركتها وحيدة في الدنيا. وكانت تستغرب أنها حَكت له أدق أسرار حياتها، رغم عدم معرفتها به! هل لأنه عجوز؟! ربما كان في عمر أكبر من عمر أبيها الذي مات من سنوات بعيدة، أم لأنها لم تتصور أنّ من الممكن أن يعرض عليها الزواج، وهو الفكرة التي لم ترد إلى ذهنها أبداً. والغريب أن الرجل لم يحكِ عن نفسه، ولم يتكلم إلا القليل، القليل جداً، لكن كلامه ظل محفوراً في ذاكرتها، خصوصاً مقاطعاته الصغيرة لها عندما كانت تسرد حكاياتها، فلما قالت أن زوجها ضربها ضرباً مؤلماً في إحدى المرات، ثم تركها تبكي وتنوح، وعمل لنفسه كوباً من الشاي، ثم أخذ يتفرج على التليفزيون، ليلة أن قالت لحماتها أن طبيخها ينقصه الملح، لمّا دعتهما، بمناسبة دعوتها لعريس ابنتها وأهله، في العيد، قال العجوز: «الصراحة سكّين يرشقه الناس في صدر صاحبها».

أما قوله: «أهل المودّة كانوا ما كانت الشهوة نائمة» فكان بمناسبة تصريحها بأنها كرهت الزواج، كراهية النار للماء، لأنها كانت تظنه غير الظنّ، وتعتقده غير الاعتقاد، وذلك لحظة أن اختلى بها زوجها ليلة الزفاف، وهجم عليها هجمة الوحش الكاسر في الظلام، وهي التي كانت تظنه سيفعل معها مثل كانت تراهم يفعلونه في أفلام السينما، فيخفق قلبها، ويرتعش جسدها، ثم حدّثته أنها كرهت القبلات، كراهية لا مثيل لها، منذ أن قبّلها زوجها القبلة الأولى والأخيرة، التي تلقتها في حياتها من رجل، وأنها بعد ذلك دعكت أسنانها بالفرشاة والمعجون، حتى تضيع أثر ما جرى لها.

ثم أنها أخبرته كيف كانت تفني يومها في خدمة زوجها والعيلين، وتغسل وتكنس وتمسح منذ طلعة الشمس – بعد أن تركت شغلها وقعدت في البيت بناءً على رغبته – ثم يأتي هو بعد ذلك ويطلبها في الفراش آخر الليل، فترفض، فيغضب ويضربها، فتنام في غمّ ونكد، علماً بأنها تكون ساعتها كالجثة الهامدة من شدة التعب وهدّة الحيل، فأعلمها العجوز أن «نفرة المصالح آفة التصالح»، مثلما أعلمها أن «مغبة الفقر غيبة العقل» عندما تحسرت أمامه، وأعلنت ندمها، لأنها لم تكمل تعلمها، بسبب أن الزوج كان قد تقدم لها، ففرحت أمها لدنوّ سترها، وهدوء سرها، والخلاص من عبء تكلفة معاشها، أما هي، فطارت من سعادتها بالسلسلة الذهبية التي قدّمها العريس لها، والفستان الأبيض في الزفّة، حيث مشت تتطلع إليها العيون من كل ناحية، ثم كان هناك الأثاث، والملابس الجديدة، لكنها عرفت بعد ذلك أن فرحة الزواج قشرة تبرق وتزول سريعاً مع الأيام، وأن مباهجه قليلة لا تدوم، يعقبها هم ونكد وشقاء.

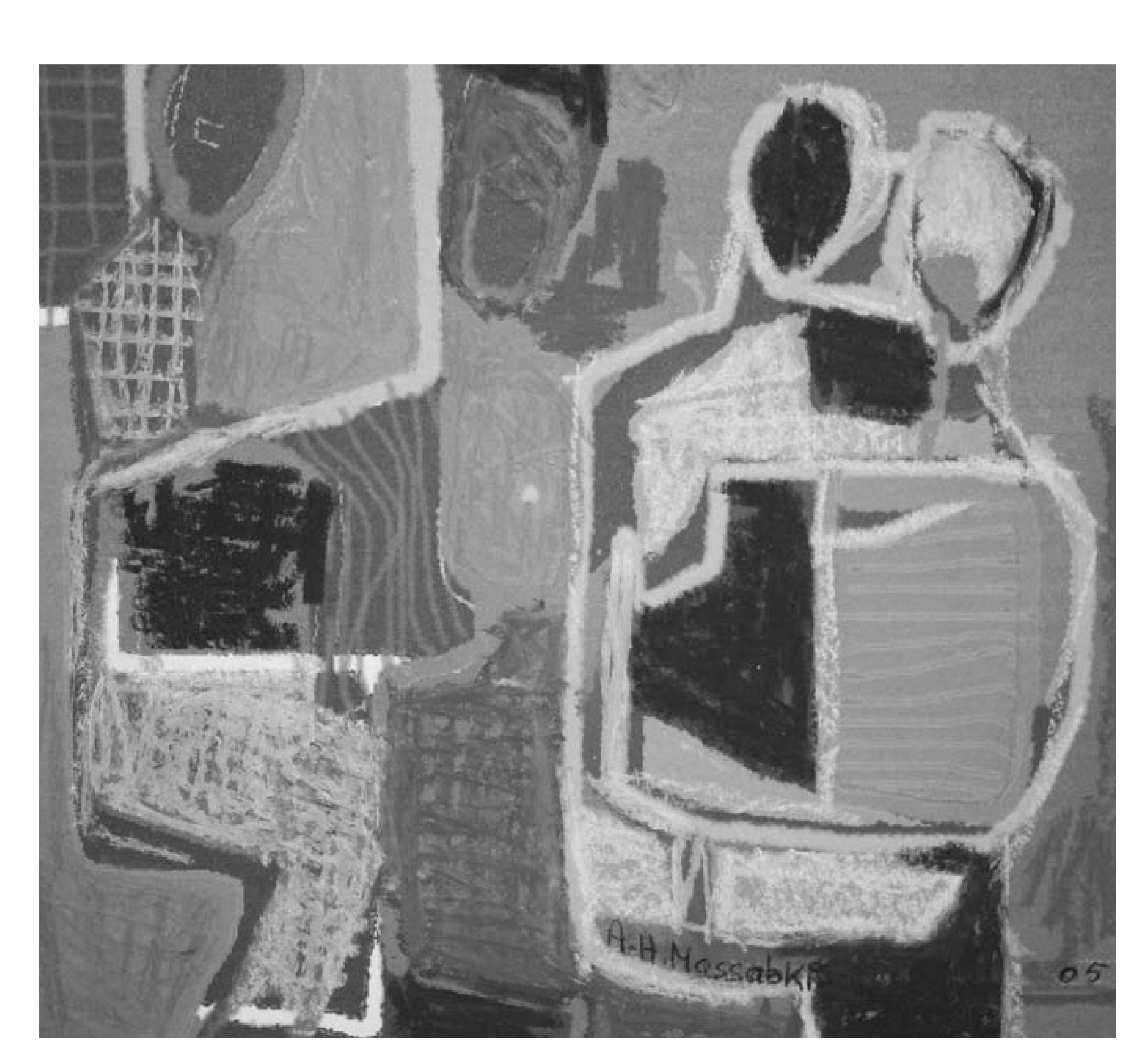
وكلما توغلت أم الولدين في سرد حكايتها أكثر وأكثر، كان العجوز يرد عليها بعجيب الكلام وغريبه، حتى عندما قالت له كيف طلّقها زوجها، بعدما ضربها علقة ساخنة فقذفته بمفتاح انكليزي أسال دمه، وكان قد فاض فيض غضبها، وفار فوراناً بعد غليان دمها، فحلف يميناً أنها طالق بالثلاثة، ولن تبيت ليلة بعد تلك الساعة في بيته، فلمّت مالها عنده، وأخذت الولدين، وراحت لبيت أمها، ومن ذلك الوقت وهي لا ترى خلقته إلا في طلعة كل شهر، عندما يجيء إليها، ويرمي لها فلوس نفقة العيال فعند ذلك الحد تنهّد العجوز، ثم ترحّم على زوجته، وقال أنها كانت كالبدر المنير، والماء السلسبيل، صوتها كالنغم، وريقها كالعسل، إذا تكلّمت همست، وإذا سمعت سكتت، ولم تجادله يوماً في أمر قط، ولم تطالبه بما لا يطيقه أو يستطيعه، وقد أنجب منها ذكوراً ثلاثة، دون أن يتطلع مرة إلى جسدها، وكان قد تزوجها على مضض، لأنه كان عازفاً عن الزواج، غير راغب في جنس النساء، حتى شكّ أبوه في رجولته، فتزوّج إظهاراً للحقّ، ولو تُرك وشأنه، لكان له مع هذه الدنيا شأن آخر، ولكان قد جدّ في سيره جدّ العارفين، ومشى بهمة الواصلين، لكن الواحد العليم، يريد ما يريد، ويقول للشيء كن فيكون.



- 3 -

أما ما كان من أمر أم الولدين، في صباح اليوم التالي، فإنها عزمت عزمها على لقياه بالجنينة في الموضع المعهود، والميعاد المضروب، لكنها حتى قبيل ذهابها، لم تكن قد رست على بر بشأن زواجها منه، وإن كانت أميل إلى ذلك، بسبب الشقّة الواسعة التي لا تغادرها الشمس، حتى وقت مغادرة سماها عند كل غروب، لكن أم الولدين، كانت عازمة على ألا تقول ذلك السبب للعجوز أبداً، بل ستخبره أنها وافقت على الزيجة لأنها بحاجة لرجل تستند إليه في هذه الدنيا، وتحتمي بظله، وربما لن يقتنع هو بقولها، مثلما لم تقتنع هي بما قاله لها من أسباب، فصراع أولاده الثلاثة على الشقّة مسألة يستطيع حلّها في حياته دون زواج، وكان العجوز قد حكى لها في اليوم الفائت حكايته مع أولاده، فقال أنهم جميعاً يحبونه، ولا يألون جهداً في خدمته، وإظهار معزّتهم له، لكنه اشتمّ منذ فترة رائحة صراعهم على شقته، الذي ظهرت علاماته قبل أن يموت، فالصغير يرغب فيها لإنشاء شركة للتجارة، والكبير يرغب في بيعها والانتفاع بثمنها، أما الأوسط فيريد الإقامة فيها ليؤجّر شقته مفروشة، وكان قد قال لها أيضاً أن أبناءه قد بدأوا يكره بعضهم بعضا، وهم الذين أرضعهم الحنان والمودة، منذ أن خلّفهم في هذه الشقّة، وربّاهم حتى صاروا رجالاً لهم شأن في هذه الدنيا، وهو يريد أن ينقذهم من هذه الشقّة بزواجه منها، حتى لا يحدث لهما مثلما حدث للثيران الثلاثة، فسألته عما حدث للثيران الثلاثة، فقا لها، زعموا أن ثلاثة ثيران كانوا يعيشون في مرعى خصيب، حيث الماء والكلأ، أحدهم أسود، والآخر أبيض، والثالث أحمر، كانوا يأكلون ويمرحون لا يكدّر صفوهم شيء، حتّى كان وقت أخذ المطر فيه ينقطع شيئاً فشيئاً، والعشب يجفّ، حتى كاد أن ينعدم، فقرر الثيران الرحيل إلى أرض معشوشبة لا ينقطع عنها العشب النضير، وعزموا على المغادرة في اليوم التالي، وبات كل منهم يفكر أنه لن يرحل عن هذه البقعة، لأرض أخرى، فما زال بها بعض العشب، يمكن أن يكفيه وحده، لو رحل أخواه، وربما هطل المطر فيما بعد، واخضرت الأرض من جديد، فيعيش هانئاً سعيداً، يأكل من حشائشها دون منازع أو شريك، فلما أصبح اليوم التالي، صحوا والشرّ بادٍ على كل منهم، فقال الثور الأسود لرفيقيه، أرى أن الكلأ في هذه الأرض لا يكفي إلاّ لواحد منا، وأنا أرى أن تذهبا، وتبحثا عن رقعة أخرى، لأني أودّ البقاء هنا. فقال الثور الأحمر، ولماذا لا أكون أنا الذي يبقى في هذا المكان. ومثله قال الثور الأبيض. وما لبث غضبهم أن اشتعل، وثار غبار عراكهم، حتى أوشكت الشمس على المغيب، وبينما هم على هذه الحال وإذا بأسد فتي يمر على المكان، فأخذ يراقب سير المعركة، ولما رأى أن الثور الأحمر قد خر صريعاً والثور الأبيض يوشك أو يكاد، هجم وأجهز عليه، بينما جرى الثور الأسود في أجمة قريبة، ونفسه تطير من شدة الفرح، فقد خلا له الجو في الأرض، وعزم أمره على أن يذهب إليها في اليوم التالي، لينعم بخيرها وحده، دون منازع، ولما جاء اليوم التالي، ذهب الثور إلى بقعة العشب، فأكل هنيئاً، وأخذ يسرح ويمرح هنا وهناك فرحاً بخلاصه من أخويه، واستئثاره بالمكان، لكن الأسد ما لبث أن جاء، وقد وجه صيداً يسيراً، فهجم عليه وافترسه، فخر الثور الأسود صريعاً.

ثم أن الرجل العجوز تنحنح وتنهّد، وقال للمرأة أن أحداً من أولاده لا يستحق الشقّة، لأن ما من أحد منهم بحاجة لها، وأنه قد فكّر في تركها لصاحب العمارة لكن الرجل الذي هو بالأصل تاجر فاكهة، لن يفكر في الأمر إلا كما فكر فيه أبناؤه الثلاثة، فيحوّلها إلى مشروع من مشاريعه الكثيرة، أو يبيعها، أو يؤجّرها مفروشة، كما قال لها أن البيوت جعلت في الأصل مأوى للناس، وستراً لهم، وليست للربح والتجارة، وقد قلت لأولادي: انظروا كيف نشأتم في هذا المكان، حتى صرتم رجالاً، ولو لم يكن هذا المكان مأوى وسكناً وستراً ونعمة لنا، ربما ما تزوجت قط، وما كنتم أنتم في هذه الدنيا، ولو سكن الشقّة من بعدي إنسان، فلربما فكّت كربته، وقضت حاجته، ولربما خلّف فيها من سبّح بحمد الله وشكر نعمائه، ونفع الناس ونفعوه. ولكن يبدو أن خلاصهم لم يكن كخلاصي، وطريقهم قد بعدت كثيراً عن طريقي، وقد أيقنت ذلك لما رأيتهم ينظرون لبعضهم بعضاً النظر الرهيب، ويسكتون السكوت الخطير، ولا يردّون، فعلمت أن الفرقة واقعة بينهم لا محالة، بسبب الطمع والتكالب على الدنيا، فترحّمت عليهم، وطلبت من المتعالي أن يعمهم



برحمته ومودته. فتعالي مع ولديكِ واسكنوا الشقة، تنتفعون بها، وتذكرونني بعدها الذكر الحسن، فأتشفّع بكم عنده في ذريتي، وليكن بيننا أيتها المرأة ما بين الأب وابنته، أو بين الأخت وأخيها.

ذهبت المرأة في الموعد المضروب، إلى المكان المعهود، ولما حانت ساعة اللقيا، حيث كانت الشمس تبهج السماء بنورها ودفئها، جلست أم الولدين على المقعد الحجري، تنتظر قدوم العجوز، متوقّعة وروده إليها بين لحظة وأختها، وكانت تشعر آنذاك، وهي تتأمل الكون، أن روحها صافية صفاءً لا يعادله إلا صفاء مياه الجدول الجاري أمامها، حيث تغرّد الطيور على الأشجار المحيطة به، وكانت قد نوت ساعتها أن تتزوج الرجل، لا لأجل الشقة والولدين، لكن لأجل روحها وروحه، التي أدخلت على نفسها سكينة لم تعهدها من قبل قط.

وقد خاطبت المرأة روحها فقالت لها: وحتى، يا بنت، لو جرى بينك وبينه ما لا يجري بين البنت وأبيها، والأخت وأخيها، فلن تمانعي أبداً، فعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم، فربما كان هذا العجوز خليلك وصديقك، وأمك وأباك، وعطية الدنيا لك، بعد أن أمسكت وشحت وأشاحت بوجهها عنك في الزمان الماضي.

ويصعب التكهن بما حدث في صباح ذلك اليوم مع المرأة أمّ الولدين، وما كان من أمرها مع عجوز المصادفة، لكن في الأيام التالية لذلك اليوم، ولمدة سنوات طويلة، ظل رواد الحديقة يشاهدون امرأة ذاهلة العقل، شاردة الفكر، تنظر بين لحظة وأخرى إلى بوابة المكان، تطرق إلى الأرض حيناً، أو تتابع سرباً من النمل حيناً آخر، ولما كانوا يسألونها، كانت تتمعّن الوجوه، بينما تعبر عينيها سحابة حزن، وتجيب: «أنتظر الشمس»، ثم تضيف في حسرة: لما نظرت إلى البعيد، ظننته هو، فوقفت وهممت بمد يدي لمصافحته، لكنه لم يكن غير شحاذ مسكين مدّ يده إليّ طالباً حاجة لله.